على بصيرة

طرائق للدعوة وتذكرة للدعاة



عبدالوهاب الطريري أبا الخيل

على بصيرة

طرائق للدعوة وتذكرة للدعاة

اسم الكتاب	على بصيرة
اسم المؤلف	عبد الوهاب الطريري أبا الخيل
التدقيق والمراجعة	مكتب المؤلف
التصميم والإخراج	حسام حوا houssamhawwa.com
الإشراف العام	م. حســن صالح

جميع الحقوق محفوظة لدى
مؤسســـة الفرسان للنشـــــر والتوزيع
ويحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلاّ بموافقة خطيّة من الناشر.

All Rights Reserved ©
Al Fursan Est. For Publishing & Distributing
No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2026 م /1447هـ
ردمك 9789923850428 ISBN:
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 2026/03/1553

مؤسسة الفرسان للنشـــر والتوزيع
Al Fursan Est. For Publishing & Distributoring
الأردن - عمـــان - العبدلـــــي
Jordan -Amman - AlAbadli
+962 6 560 7386 +962 6 565 3470
+962 79 520 8684 +962 79 7838 666
alfursan111@yahoo.com
@alfursanjordan

عَلَى بَصِيرَةٍ

طَرَائِقُ لِلدَّعْوَةِ وَتَذْكِرَةٌ لِلدُّعَاةِ

عَبْدُ الوَهَّابِ الطُّرَيْرِيِّ أَبَا الخَيْلِ


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إلى إخوتي الأئمة والدعاة فوق كل أرض وتحت كل سماء..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من عند الله مباركة طيّبة، وبعد:

فلقد سعدت بزيارة مراكز إسلامية في بلاد الدعوة ومهاجر الدعاة، ورأيت من اجتهادهم وإنجازهم ما ملأ النفس إعجاباً بهم وغبطةً لهم، فهم الامتداد التاريخي لدعوة الرسل ودعاة الصحابة، في قافلةٍ ممتدّة عبر الزمن، تتعاقب جيلاً إثر جيل، يصطفي الله لها مِن كل جيل خياره، ليكونوا حملة دينه ومبلّغي رسالاته.

وكنت في كل مرةٍ ألقاهم أشعر أني أتزوّد بمدد روحيّ، وطاقة نفسية عالية، فكثير من هؤلاء الإخوة نموذج للتفاني، والاستغراق في العمل، والتلذذ بالإنجاز.

وكنت في نشوة هذه اللقاءات أتفاعل معهم ببعض الخواطر من وحي اللقاء، وأسمع منهم بعض الإفادات، فرأيت جمعها في هذه النقاط المختصرة، لتكون رسالةَ تَذاكُرٍ وتناصح، تؤكد ما ذكر، وتُذَكر بما لم يذكر، وأنتظر ممن اطلع عليها من إخواني إفادتي بمرئياتهم من إضافة أو استدراك، سائلاً الله أن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، والمتواصين بالحق والصبر، وأن ينفع بإخواننا الدعاة، ويبارك في دعوتهم، ويوفقهم في جهودهم، فهو الموفق والهادي إلى سواء السّبيل.

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

باشاك شهير ـ إسطنبول

٢٩/ ٨/ ١٤٤٥هـ

أولاً

ماذا عن الدعوة؟

عالَميّة الدعوة

أعلن النبي ﷺ دعوته في مكة وهي وادٍ في طرف جزيرة العرب، بعيد عن حواضر العالم، ومع ذلك أعلن من أول يوم أنها دعوة للعالمين، وأنها للناس كافة، ولذا جاء الخطاب القرآني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، فلم يقل: «يا أيها العرب». ولا «يا معشر قريش» وإنما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا الخطاب بحد ذاته دلالة من دلالات النبوة، لأن أي إنسان لا يمكن أن يتخيل أنه وهو في هذا المكان النّائي سيبلغ نداؤه وأثر دعوته إلى البشرية كلها ما لم يكن هذا النداء بوحي سماوي.

كما أن النبي ﷺ في بداية خطوات دعوته الأولى استجاب له وأحاط به أناسٌ من أجناس وأعراق، ولم يكونوا كلهم من العرب، مع أنّ الدعوة لا تزال في بدايتها الأولى، فكان معه في مكة على الإسلام: أبو بكر وعلي وخديجة وغيرُهم من العرب، وبلال، وأم أيمن وغيرهم من الحبشة، وصهيب الرومي من بلاد الروم، وسالم مولى أبي حذيفة من فارس،

وهذا التنوع في الأجناس حول النبي ﷺ في بداية البعثة يُقدّم هوِيَّة دعوته، وأنها دعوة عالمية لكل شعوب الأرض، ولكل أمم الدنيا، ولذلك استقطب النبي ﷺ في المدينة أصحاباً له من أجناس شتى، وكان ممَّن صحب النبي ﷺ قرابة (١٢٥) صحابيّاً كلهم من غير العرب، من الأحباش والأقباط والروم والفرس والإسرائيليين، وكان هذا مما يبيّن عالميّة هذه الدعوة وأنّها رسالة الله للناس كافة.

ووجّه النبي ﷺ خطابه إلى أمم الأرض، فأرسل الرسائل إلى هرقل ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى المقوقس عظيم القبط، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وغيرهم، كل هذا لأن هذه الرسالة رحمة للعالم كله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وأنتم الدعاة اليوم في كل ناحية من أصقاع الأرض تحقّقون عالمية دعوة النبي ﷺ في البلاد التي أنتم فيها، والأمم التي تدعونها، فهنيئاً لكم خيرة الله لكم، وتشريفكم بأعظم مهمّة وأشرف رسالة.

وإذا نظرنا إلى مسيرة الأمة الإسلامية نجد أن العمل للإسلام وخدمته وقوة الانتماء إليه لم تكن خاصة بشعب، ولو كان الشعب العربي، فالعرب مع أنهم حملوا الرسالة في بداية الدعوة لكنّ شعوبا أخرى شاركتهم وتحملت المسؤولية معهم، وكانت جزءاً رئيسا في بناء الأمة الإسلامية.

فكان من الفرس علماء المسلمين الذين اعتنوا برواية سنة النبي ﷺ وحفظها وروايتها، ومن البربر كان جيش المسلمين في مواجهة الغزوات الرومية، ومن الشركس كان قادة الأمة، بعد سقوط الخلافة العباسية، وسلاطينُهم الذين يسمَّون المماليك هم زعامة الأمة وقيادتها في وقتهم، وهم كانوا من قبائل وشعوب آسيا الوسطى.

ثـمّ جـاء الأتــراك بعد ذلـك وأقـامـوا دولـة الإســلام وكانت الخلافة باسمهم.

كما انتمت شعوب وأمم إلى الإسلام بحب ورغبة، مثل أكثر شعوب إفريقيا، وجنوب شرق آسيا، فكل هؤلاء لم يدخلوه بتأثير قوة عسكرية، ولا طمع مادي، وإنما استهواهم الإسلام، وقوي انتماؤهم إليه، وأصبح منهم دعاة وعلماء، وحملة رسالة.

ومن ثَمَّ تعددت مشاركة الشعوب في العمل للإسلام، وتعددت العواصم الإسلامية في العالم، فالمدينة في الحجاز، والكوفة وبغداد في العراق، ودمشق في الشام، والقاهرة في مصر، وتمبكتو في مالي، وهرات في أفغانستان، وحيدر آباد في الهند، وهناك أمم أسلمت وتعربت، مثل الأقباط في مصر، والبربر في إفريقيا، وأمم كثيرة أسلمت ولم تتعرب، كالأتراك والأكراد والملايو وشعوب البلقان وغيرها، وبقي الإسلام الهُوِيَّة الجامعة لهم جميعاً.

ولذلك عندما تَنشُرُ رسالةَ رسولِ الله ﷺ في أي صقع بعيد من الأرض وفي أي أمة نائية فلا تدري لعلها مِن الأمم المدَّخَرة للإسلام.

وعندما ذهبت إلى أمريكا الجنوبية ورأيت قابلية هذا الشعب للتدين وللإسلام بخاصّة قلتُ: لعل هذه الأمة اللاتينية أمةٌ مدَّخَرةٌ للإسلام، وربما كانت هذه القارة ساحة الإسلام القادمة، ولا ندري في أي مكان تنبت شجرة الإسلام وتمتد جذورها وتتفرع أغصانها.

المسؤولية عن الإسلام

لما قدم مالك بن الحويرث على رسول الله ﷺ ومعه رفقة من قومه، وكانوا شباباً متقاربين، فأقاموا عنده عشرين ليلة، كانت أشبه بدورة تعليمية مكثفة، وكان ﷺ رحيماً رقيقاً، فلما رأى أن هؤلاء الشباب قد اشتاقوا إلى زوجاتهم وأهلهم تبسّط معهم، وسألهم عن أهلهم وقراباتهم فأخبروه، وكان في هذا مزيد احتفاء واحتواء، ثم قال لهم: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أصلِّي**»[1].

وهكذا كل من لقي النبي ﷺ ثم رجع إلى قومه كان سفير رسول الله ﷺ والمبلِّغ عنه، مع أن عمره في الإسلام قد يكون أياماً قليلة، فقد بعث ﷺ في أول الإسلام مَن أسلم من القبائل إلى أقوامهم، فبعث أبا ذرٍّ إلى قومه غفار، وبعث الطفيل بن عمرو الدوسي إلى دوس، وبعث عمرو بن مرة الجهني إلى جهينة، وغيرهم.

(١) «صحيح البخاري» (٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).

وكان ﷺ يستنفرهم لذلك فيقول: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[1]. ويقول: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»[2].

من المهم في دعوة غير المسلمين للإسلام إذا فتح الله عليهم فأسلموا أن يقذف في قلوبهم استشعار المسؤولية عن الدين، وتحميلهم مسؤولية الدعوة إليه، وأنَّك متى اهتديت إليه فإنّك تتحمل مسؤولية دعوة غيرك له، وأننا نتحمل مسؤولية استنقاذ البشرية، وهدايتها إلى طريق الله وصراطه المستقيم، وهذا الذي كان النبي ﷺ يقذفه في رُوع[3] أصحابه بمجرد أن يُسلموا.

ولِذا فلم يكن أحد يُسلمُ إلا شعر أن من ضمن مسؤوليته الدعوة إلى الله، وبلاغ رسالة الإسلام، ومن ذلك حديث ضمام بن ثعلبة الذي أتى إلى النبي ﷺ وسأله عن الإسلام فقال له: «أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟».

قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**».

قال: «أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟».

قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**».

قال: «أنشدك بالله، آللهُ أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟».

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٦١).
(٢) «صحيح البخاري» (١٧٤١).
(٣) قلوبهم ووجدانهم.

قال ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

قال: «أنشدك بالله، آللهُ أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟».

قال ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

قال: «فأنشدك به، آللهُ أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلا؟».

قال ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ».

قال: «فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وهذه الخمس والله لا أزيد عليها ولا أنقص»[١].

فهو التزم أنه لا يزيد على هذه الخمس، لكن هل فهم أن الدعوة إلى الله من ضمن الزيادة التي استعفى عنها أم إنها من ضمن المسؤولية التي التزم بها؟.

عندما ننظر إليه نرى أنه رجع إلى قبيلته وبيّن لهم خطأ عبادة الأوثان، وأنّه إنّما يُعبد الله وحده وأنّه قد جاءهم من عند رسول الله حقّاً فأسلموا كلهم جميعا، حتى قال عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «فَما سمعنا بوافدِ قومٍ كانَ أفضلَ مِن ضمامِ بنِ ثَعلبة»[٢]، لأنه بمجرد لقاء النبي ﷺ وقبوله للإسلام شعر بمسؤوليته عنه، وهذا ما ينبغي أن يشعر به كل مسلم جديد.

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٢)، و«سنن النسائي» (٢٠٩٤).

(٢) «مسند أحمد» (٢٣٨٠).

رجل من أقصى المدينة

لا نعلم قرية أُرسل إليها الرسل تباعاً، واجتمعوا فيها جميعاً يعلنون دعوتهم، ويبلغون كلمتهم، ويُصدق بعضهم بعضاً، ويشهد بعضهم لبعض، إلا أصحاب هذه القرية التي قصّ الله علينا خبرها، إذ أرسل الله إليهم رسولين فكذبوهما، فأرسل ثالثاً يصدقهما ويشهد لهما، فأعرضوا عنهم جميعاً وقالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

يا لله! ثلاثة رسل يتآزرون على النذارة في قرية واحدة، ولم تكن القرى قديماً تحتمل كثافة سكانية كبيرة، ولم يؤمن بدعوتهم إلا رجل في أقصى المدينة، فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها دلائل الحق والصدق، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره، فلم يطق عليها سكوتاً، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وسعى به إلى قومه، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم تكن له وجاهة في قومه أو منعة من عشيرته، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه، فجاء من أقصى المدينة إلى أقصاها ينادي: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]. ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه وعن أسباب إيمانه، ويناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه فاقتنع، لعلها تستيقظ فيهم فيقتنعوا: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٢-٢٤]، و يتساءل: لِمَ لا أعبد الذي فطرني والذي إليه المرجع والمصير؟! يتحدث عن رجعتهم هم إليه، فهو خالقهم وحده، ومن حقه أن يعبدوه وحده.

وبعد أن تحدث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير في وجه المقاومين المكذبين المهددين المتوعدين، لأن صوت الفطرة في قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥].

وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة، وأشهدهم عليها، وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها.

ثم ينقلنا القرآن نقلة تتصل فيها الحياة الدنيا بالحياة الآخرة، حين يخلص هذا المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة، ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق، ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.

ونرى الرجل المؤمن بعد أن لحق بربه ورأى ما كان يؤمن به، وأُدخل الجنة واطلع على ما آتاه الله فيها من المغفرة والكرامة، يذكر قومه طيب القلب رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه فيرون ما آتاه ربه من الرضا والكرامة ليعرفوا الحق معرفة اليقين: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧][1].

ألا تلتفت أبصار بصائرنا إلى هذا الرجل الذي احتفى به القرآن هذه الحفاوة، ونقل من كلامه أكثر مما نقل من كلام الأنبياء الثلاثة؟! لقد صحِبَنا معه في حياته الدنيا، ورأينا مصيره في الحياة الآخرة وهو نعيم الجنة وما قال فيها وما تمنى، وما لقي من كرامة الله ورضوانه.

إن هذا الرجل جاء من أقصى المدينة مسرعاً، ولم يقل: «وماذا ستفيد دعوتي وقريتي فيها ثلاثة أنبياء؟» بل تكلم بحرقة وحرارة مناشداً قومه، ولم يقل: «ماذا سيفيد كلامي وهؤلاء ثلاثة أنبياء يتكلمون؟» لقد تجاوز كل هذه الأعذار وجاء هذا المجيء السريع وناشد هذه المناشدة الحارة.

إنه الإسراع الحثيث والاستنفار والاستنقاذ بحرارة ولهفة.

---

(١) يُنظر: «في ظلال القرآن» لسيد قطب (٢٩٦٣ ـ ٢٩٦٤).

ومثل ذلك نفر الجن الذين حضروا القرآن يستمعونه من النبي ﷺ، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٠ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

إن هؤلاء الجن عظموا القرآن واستمعوه بإنصات، فلما قضى النبي ﷺ تلاوته انصرفوا مبادرين إلى قومهم.

ولم تكن المدة بين استماعهم ودعوتهم إلا مسافة وصولهم إلى قومهم، لقد ولَّوا إلى قومهم منذرين، فجاؤوا جميعاً منذرين، ولم يكتف بعضهم بإنذار بقيتهم، وإنما كانوا كلهم نُذُراً.

وكما جاء الرجل من أقصى المدينة يسعى فإن هؤلاء الجن الصالحين بادروا إلى قومهم منذرين فور استماعهم القرآن.

إنه مشهد المبادرة في الدعوة، والإسراع إليها، وعدم إلقاء التبعة على الآخرين، بل البحث عن الفرصة للمشاركة.

إن تأمل هذين المشهدين القرآنيين حقيق بأن يستنفر كل همة ويستثير كل طاقة، ويلغي تَعِلَّات الأعذار التي يتكئ عليها كل قاعد.

خير لك من حُمْر النَّعَم

كانت خيبر سلة الغذاء لغرب الجزيرة العربية، ففي أوديتها غابات النخيل، وفي حصونها كنوز الذهب والفضة، وكان اليهود فيها يكيدون لرسول ﷺ وهم الذين جمعوا الأحزاب في غزوة الخندق، ولذلك ذهب النبي ﷺ إلى حصونهم ليقتلع فتنتهم، ولكن برغم سوابقهم العدائيّة وبرغم ثرواتهم الهائلة إلا أن هناك ما هو أقوى من الانتقام المستحق، ومن الطمع في الأموال، ألا وهو الطمع في هدايتهم، ولذلك دفع النبي ﷺ الراية إلى علي رضي الله عنه وقال: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»[١]. إذن كانت إرادة الهداية أقوى من شهوة الانتقام وأقوى من شهوة الطمع، فكانت الهداية هي الهدف الأكبر، وقال: «**لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).

أي خير لك من الثروات العظيمة، لأن الجِمَال الحُمْر هي من أنفس الأموال عند العرب، وتشبيه أمور الآخرة بمشاهد الدنيا هو لتقريب الأفهام، وإلا فذرّة من الآخرة الباقية خير من الدنيا وما عليها، فكان هذا هو الإغراء في عرض الدعوة، فربما يفتح الله على يديك فيُسلِم رجل واحد هو خير لك من حمر النعم، ثم سيسلم على يديه إذا أحسنت صحبته ودعوته من لا يعلمه إلا الله، ولك أجرُ هؤلاء كلّما تتابعوا وتناسلوا، وما عملوا وما عُمِل على أيديهم، وفضل الله غامر، وعطاؤه عظيم، فكم من داعية راقد في قبره وأعمال مَن دعاهم وعلّمهم تتابع إليه جيلاً إثر جيلٍ، وكثيراً ما تكون دعوتك قنطرة لإنجاز أكبر من إنجازك، وعمل أكثر من عملك، وكل ذلك لك أجره، فضلاً من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم.

وحسب الداعية أن وصف الله قوله بأنه أحسن قول، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد، ولا أحد أحسن قولاً منه، لأن الدعوة إلى الله هي الدعوة النبوية، وكلُّ مَن انتهج نهجها وسار على إثرها أدرك الوراثة التامّة للرسل.

الحياة دعوة والدعوة حياة

عندما ننظر إلى آخر لحظات النبي ﷺ في الحياة، وهي لحظات شدة الموت وسكراته، نجدْ أن النبي ﷺ قد أنفق آخر أنفاس عمره وآخرَ لحظاتِ حياته وتجاوز كُرَب الموت وشدته ليُنفِذ دعوةً لأمته، فكان من آخر كلماته ﷺ أن وجّه نداءً إلى أمته: «**الصَّلَاةَ، الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»[1]. فما زال يكررها حتى احتبستْ بها أنفاسه. فإذا كان النبي ﷺ لم يألُ أمته دعوة ونصحاً في هذه الكربة الشديدة فكيف به في سعة أوقاته وفسحة حياته؟!.

لقد كان ﷺ يعيش حال استنفار دعوي، فكانت حياتُه دعوة، ودعوتُه حياةً، لذلك تجده داعية في مجلسه، داعية على منبره، داعية في الطريق الذي يمشي فيه، داعية في السوق الذي يدخله، داعية على الطعام الذي يجلس إليه، يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «جلسنا مع النبي ﷺ إلى الطعام، فرفعت إليه الذِّراع، وكانت أحبَّ الشَّاة إليه، فنَهَسَ نَهْسَةً،

(١) «مسند أحمد» (٢٦٤٨٣، ٢٦٦٥٧)، و«سنن ابن ماجه» (١٦٢٥).

فقال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». قال: فسكتنا. ثم نَهَسَ أخرى، فقال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». فلما رأى أصحابَه لا يسألونه قال: «**أَلَا تَقُولُونَ كَيْفَهْ؟**». قالوا: كَيْفَهْ يا رسولَ الله. قال: «**يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ،...**»[1]. ثم ساق حديث الشفاعة الطويل وهو من أطول الأحاديث في صحيح البخاري، أين كان يحدّث بهذا الحديث؟ على مائدة الطعام، وبعد أن شرع في الأكل، والذي يظهر أن النبي ﷺ اختار أن يتحدث بهذا الحديث في هذا المجلس خاصّةً لأن أناساً كانوا موجودين وقتها ينبغي أن يعوا هذا الحديث منه، وإلا فقد كان من الممكن أن يلقي هذا الحديث في خطبة جمعة أو غيرها، وانظر كيف عرَضَهُ بهذه الطريقة التشويقية: «**أَلَا تَقُولُونَ كَيْفَهْ؟**».

ويركب النبي ﷺ على حمار وخلفه معاذ، فلم يدع الطريق ينتهي دون تعليم ودعوة، فإذا به يقول لمعاذ: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟**». قال: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ ﷺ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[2]. لاحظ أنهم على الحمار في الطريق، ومع ذلك جعل مسافة الطريق فرصةً للتعليم والدعوة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٤)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٠)، وغيرها.

ولذلك يحرص الداعية أن لا تفلت منه فرصة دعوة إلا استغلها، فالجالس بجانبك في مقعد الطائرة، والذي تزوره في مكان عمله أو يزورك في مكان عملك أو تلتقي به في مكان عامّ أو لقاءٍ خاصٍّ كلٌّ منهم فرصتُك التي ينبغي أن تستغلها، ولا يلزم أن تفتح معه مشروع الدعوة من أوله إلى آخره، فالمهم أن تلقي إليه ببذرة، فتعطيه مطوية، أو تطرح عليه تساؤلا، وتقول له: هذا الموضوع يهمّني، وأعتقد أنه يُهِمّك. أو تدعوه إلى زيارة المسجد، أو تدعوه إلى حضور اجتماعاتكم الدعوية ونحو ذلك.

فتحاول أن تجعل كل من تلقاه جزءاً من مشروعك، وكل فرصة تسنح لقول خير أو دعوة إلى خير تستغلها فلا تفلت منك، وإن النبي ﷺ الذي أنفق لنا آخر أنفاس عمره قد علمنا بذلك أن نجعل من أنفاسنا ولحظات حياتنا مضماراً لدعوتنا ورسالتنا.

داعية في غياهب السجون

يتتابع عليه البلاء من جور الإخوة وظلمهم، إلى رِقِّ العبودية بعد عز الحرية ودلال الأبوة، ثم الاتهام الباطل، والافتراء الشنيع على عفته، ثم سجنه ظلماً وبهتاناً وهو الطاهر البريء.

وفي السجن تكوَّنت العلاقة بينه وبين نزلاء السجن، واجتذبهم إليه تعامله الكريم معهم، وإحسانه إليهم، ولذا قصدوه فيما يهمهم، وسألوه فتيا في رؤياهم التي رأوها.

فقد رأى أحدهم أنه يعصر خمراً، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، وسألاه أن يؤوِّل لهما هذه الرؤيا، وكانا في غاية اللهفة لمعرفة تأويلها.

فأهم أحداث السجناء رؤاهم التي يرونها في منامهم، فهذا الحدث المتجدِّد في حياةٍ متوقفة رتيبة.

كما قال أحدهم:

ونفـــرح بالرؤيـــا فجـــلُّ حديثنـــا   إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا

وإذا به يستغل هذا التشوّف وهذه اللهفة، فيبدأ بتعزيز الثقة بعلمه، فيخبرهما أن الله آتاه علماً يؤوِّل به الأحداث الواقعة كما يؤوِّل الرؤيا المنامية، فيخبرهما بما سيحدث قبل حدوثه، ولذلك فإنه يستطيع إخبارهما بالطعام الذي سيأتيهما قبل أن يأتيهما، وهذا هو الحدث الوحيد المتجدِّد في السجن.

ثم بيَّن أن هذا العلم علم رباني، وليس كهانةً ولا سحراً، فقال لهما: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧].

وهنا توقَّع سؤالاً افتراضيّاً منهما: كيف خصَّك الله بهذا العلم وأتاك إياه؟ فأجابهما: إني تركت الأديان الباطلة التي لا تؤمن بالله ولا بالآخرة.

وهنا توقَّع سؤالاً آخر منهما: إذا كنت تركت دين الملك والناس فأي دينٍ اتبعت؟

فأجابهما قبل أن يسألاه: إني اتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهو دين التوحيد والاستسلام لله وحده، فما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، وأن هذا من فضل الله وإنعامه علينا وعلى الناس الذين ندعوهم، وإن كان أكثر الناس لا يشكرون الله على نعمه، ولا يتوجَّهون إليه بالعبادة وحده.

وهنا شعر أنهما في غاية التشوّق إلى معرفة تأويل الرؤيا، بعد أن أخبرهما بسعة علمه وعظيم فضل الله عليه، فاستغل هذه اللهفة بما هو أهم من تأويل الرؤيا، وهو دلالتهما على الحق، واستنقاذهما من ضلال الوثنية، وتعدُّد الآلهة المزيَّفة.

فناشدهما: هل من الرشد والحكمة أن تعبدوا آلهةً متفرِّقةً وتدَعوا عبادةَ الإله الحقِّ الواحدِ المتفرِّدِ بالعظمةِ والقهرِ؟! ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

إن هذه آلهةٌ مدّعاةٌ منحتموها إلهية وهمية لا حقيقة لها، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]، بينما الألوهيةُ والعبادةُ هي حقٌّ لله وحده، فهو الذي له الخلقُ وله الحكمُ، ومن حُكمِه أمرُه لنا ألا نعبد غيره، وهذا هو الدين القويم، والصراط المستقيم، وما سواه ضلالٌ وجهلٌ وقع فيه أناسٌ لا يعلمون، بسبب إعراضهم عن الحق واتباعهم كبراءَهم الذين أضلوهم، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، فليكن توجُّهُنا إلى الله وحده، ولندَعْ كلَّ معبودٍ سواه.

وكل هذا الكلام يُقال لهم وهم في حالة تشوّفٍ وإنصاتٍ، وانتظارٍ للإجابة على سؤالهم وتأويل رؤياهم، ولكنه استغل هذه اللهفة والتشوّف في إيصال رسالته وتبليغ دعوته، فوافقت دعوته لهم إقبالاً وتشوفاً، وفراغ قلبٍ لاستيعاب هذا البلاغ، ثم أخبرهما بتأويل الرؤيا، التي سألا عنها، فقال: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٤١]، وقد تلطف في الخبر فلم يقل: فأنت تسقي ربّك وأنت تُصلب، وإنما عمَّم الجواب ليخفف وقع المصيبة على المُصاب، ويتلطّف في إخباره الخبر.

ويشدُّك في هذه الدعوة اليوسفية:

١ ـ أن يوسفَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو داخل السجن يشارك السجناء معاناتَهم، إلا أنه كان معروفاً بينهم بالإحسان إليهم: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]. فما الذي كان يملكه في سجنه فيُحسن به؟ إنه الإحسان في التعامل، والإنفاق من الإقتار.

٢ ـ أنَّ يوسف لم يشغل هؤلاء السجناء بالحديث عن معاناته وآلامه، ومظلمته وغربته، وفجيعته في أبويه، ولكنه تجاوز ذلك كله، واهتمَّ بالأهم، وهو الإحسان إلى من حوله، ودعوتهم وبلاغ رسالة الله إليهم.

٣ ـ اختيار يوسف للتوقيت المناسب للدعوة، وهي حالة إقبالهم عليه، وإنصاتهم له، وتشوفهم لإجابته عن سؤالهم، فقدم الدعوة قبل الجواب لتلاقي تشوّفهم وفراغ نفوسهم.

٤ ـ أن طريقته في عرض دعوته كانت متدرجة ومرتبة ومقنعة، بحيث تجد كلَّ جملة هي تتمّة لما قبلها ومقدمة لما بعدها، فقد بدأ بتعزيز الثقة بعلمه: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٌ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٧]، وأن هذا مما علَّمه ربه، وأن سبب هذه النعمة تركه الأديان الباطلة وتوجهه إلى الإله الحق، واتباعه رسالة رُسُل الله، وهم آباؤه.

ثم ناقشهم في زيف معبوداتهم، وأنها آلهة مدعاة، فأنتم الذين منحتموها ألوهية لا تستحقها ولا تليق بها.

ثم وجههم إلى عبادة الله وحده، فهو الذي له الحكم، وهو الذي أمر عباده بتوحيده وعدم عبادة من سواه. فهذا الدين القيم والصراط المستقيم، فاتبعوه واستقيموا عليه.

٥ـ أن يوسف لم يشْكُ آلامه وما أصابه، وإنما حدثهم عن إنعام الله عليه، وأفضاله المتتابعة إليه: من الهداية والعلم، فتلك آلام عابرة، وهذه نِعَمٌ غامرة، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨].

٦ـ إذا كان يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم ينشغل عن الدعوة إلى الله وهو في ظلمات السجن وشدة الألم والقهر، فكيف بمن يتشاغل عن الدعوة وهو في سعة وقته ونعيم عيشه؟! وإذا كان يوسف يدعو السجناء وهو سجين فهل ندعو نحن غير المسلمين ممَّن يخدمون في بيوتنا، أو يشاركوننا العمل في مكاتبنا، أو تجمعنا بهم طرق الحياة ومصادفاتها؟! وكم من الفرص التي مرَّت بنا فرّطنا فيها وكسبها الشيطان.

الابن المؤمن والأب الكافر

كثيراً ما يواجه إيمانُ الابن كفرانَ الأب وعناده، وهو مشهد يتكرر في مسير الهداية الطويل.

ولكن المشهد المؤثر والخالد كان مشهد الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع أبيه آزر في حوار إيماني عميق يواجه لجاجة الكفر ومكابرته.

بدأ إبراهيم حواره الشفوق مع أبيه بتساؤل عميق مؤثر: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، إن الأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى مَن هو أعلى وأقوى وأعلم، فكيف تتوجه بها إلى من لا يسمع دعاءك، ولا يرى صلاتك، ولا يضرك إن باعدته، ولا ينفعك إن عبدته، ولا يغني عنك شيئاً؟!.

وهو يستثير غيرته وحميته حين يبين له أنه لا يعبد هذه الأصنام الصامتة، ولكنه يعبد الشيطان الذي زين له هذا الغباء، ليجعله عاصياً للرحمن كما عصاه هو.

وهذا الحوار خطاب للعقل واستثارة للتفكير مع تقديمه في وعاء عاطفي، يستثير في أبيه مشاعر الأبوة وحنانها، بتكرار النداء: «يا أبت، يا أبت».

ثم انتقل بعد الخطاب العقلي إلى خطاب وجداني: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٥]. إنه خطاب عاطفي يعلن مشاعر خوفه هو على أبيه، فلم يقل: «إني أخوّفك»، ولكن: «إنـي أخـاف». فأنا الخائف عليك، ثم قـال: ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ولم يقل: «عذاب من الجبار أو القهار»، ولكن من الرحمن، فهذا الرب رحمن، ومِن شأنه أن يرحم، فلماذا تُعرِضُ عن رحمته وتتعرض لعذابه؟!.

وبعد كل هذا الحوار الإقناعي والتلطف والتوقير، يجابه آزرُ ابنَه إبراهيم بجفاء وغِلظة، فإذا بإبراهيم الذي يكرر «يا أبت، يا أبت» لا يسمع من أبيه: «يا بني»، ولكن يسمع «يا إبراهيم»، وكأنه لا صلة له بأبيه، ثم يأتي التهديد بالعدوان والرجم: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ [مريم: ٤٦]، ثم إعلان القطيعة: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٦]. ومع ما في هذا الخطاب من غلظة وجفاء، فإن إبراهيم الحليم لم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه، ولكن تلطف به فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ [مريم: ٤٧]. وتتعجب لهذا الجفاف العاطفي لدى هذا الأب الكافر، حتى نضبت مشاعر الأبوة فتحولت إلى عداوة سافرة.

إني أعجب عندما أقارن أبوّة أبي إبراهيم الكافر تجاه إيمان ابنه، بأبوة نوح المؤمن تجاه كفر ابنه، فنوح بقي إلى آخر لحظة ينادي ابنه: «يا بني»، وعندما رست السفينة نادى ربه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: ٤٥]، إنها فطرة أبوية سوية، أما أبو إبراهيم فقد شوهت الجاهلية فطرته وحرفت مشاعره، فصار الأب الجافي القاسي المهدِّد.

ومن خلال هذه المحاورة نجدنا أمام حشد من الدلالات، من أهمها:

أولاً: أهمية المزاوجة بين الإقناع العقلي والاستثارة الوجدانية، وخطاب الفكر والقلب، وأن لا تقدَّم الدعوةُ جافةً خاليةً من المشاعر الحانية، واللهفة المستنقِذة، لقد قدم إبراهيم دعوته الناصحة في وعاء عاطفيّ جميل، يُشعر الأب بمكانته، ويخاطب قلبه كما يخاطب عقله.

ثانيـاً: البدء في الدعوة بالأقربين، فإبراهيم دعا أباه قبل أن يدعو قومه. ونبينا ﷺ جاءه الأمر الإلهي: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فدعا عمه وخاصّته، حتى ناشد ابنته فاطمة وعمه العباس.

ثالثـاً: أن إعراض من يعرض عن الدعوة، وبخاصّة إذا كان من الأقربين ليس عائقاً عن بذل الدعوة لغيرهم، فإبراهيم لم يمنعه إعراض أبيه عن دعوة قومه ومجادلتهم وتحطيم أصنامهم، وتجاوز ذلك إلى الملك المتجبر الذي ادعى الربوبية فحاججه وأفحمه، ولم يقل: «كيف أدعوهم وأبي لم يستجب لي؟» فيتسرب اليأس إلى قلبه من إعراض أبيه أو قومه، وإنّما استمر في دعوته وبلاغ رسالته.

رابعـاً: أن في حال إبراهيم مع أبيه، ونوح مع ابنه، ولوط مع زوجته، ونبينا ﷺ مع عمه، سلوة وعزاءً لكل مَنِ ابتُلي بجفاء الأب أو عقوق الابن أو عدوان القريب، فهؤلاء أنبياء كرام هم الأعظم خلقاً، والأقوم دعوة، والأحسن قولاً، ومع ذلك لم يستجب لهم القريب الأقرب، وجاء العزاء: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

امتداد أثر الداعية

ذهب مصعب بن عمير برسالة محمد ﷺ، فحوَّل هذه المدينة إلى بيئةٍ تتنفس الإسلام.

هاجر مصعب بن عمير في السَّنة الحادية عشرة من البعثة، ولم تُفرض كثير من شرائع الإسلام، لكنَّه نقل إليهم الإيمان ونقل معه الشُّعور بالمسؤولية عن هذا الدِّين، ولِذا فإنَّ الأنصار الذين أسلموا على يد مصعب بن عمير ساءهم أن الرسول ﷺ مُضَيَّقٌ عليه في مكة وهم آمنون في المدينة، فاتفقوا على أن يعرضوا على الرسول ﷺ الهجرة إليهم(١)، وليشترط لربه ولنفسه ما شاء(٢).

إنّي أتعجب كيف استطاع مصعب خلال سنةٍ واحدةٍ أن ينقل مشاعر الأنصار إلى تحمُّل المسؤولية عن الإسلام، فجاء مصعب بن عمير مع الأنصار وتمَّت البيعة، وهاجر النبي ﷺ، وشهد مصعب بن عمير بدراً،

---

(١) يُنظر: «مسند أحمد» (١٤٦٥٣).

(٢) «تفسير الطبري» (١٢/ ٦) و(٢٢/ ٦٢٠).

وشهد أحداً وفيها استشهد، وأغمض عينيه ولم يشهد فتح مكة، ولم يشهد عام الوفود يوم كانت القبائل تفِد على رسول الله ﷺ من أنحاء الجزيرة معلنةً إسلامها، ولم يشهد حجة الوداع، والنبي ﷺ معه أكثر من مئة ألف حاجٍ، لم يشهد كل هذه الإنجازات، وإنّما غادر الدنيا في أشد الساعات شِدّة، حتى إنهم لم يجدوا ما يُكفَّن به إلا بردة، إذا غطَّوا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطوا رجليه بدا رأسه[١]، لكن هل نظن أنَّ مصعب بن عمير كان غائباً عن فتح مكة، أو غائباً عن حجَّة الوداع؟.

إن كثيرا من الذين شاركوا في فتح مكة كانوا من ثمار دعوته المباشرة أو غير المباشرة، وكذلك أكثر الذين شهدوا حجّة الوداع كانوا ثمار دعوته أيضاً، وكلّ ما يعملونه مكتوب من عمله.

وقد بقيت حياة مصعب بن عمير في وجدان الصحابة بعد وفاته، فهذا عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قدِّم له طعام إفطاره وهو صائم، فلمَّا نظر إليه، قال: «قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، فلم نجد ما نكفنه به إلا بُرْدة إذا غطينا رأسه، بدت رجلاه، وإن غطينا بها رِجلَيه بدا رأسُه، فغطَّينا رأسَه، ووضعْنا على رِجلَيه مِن ورق الشَّجر، وإني أخشى أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا»، ثمَّ جعل يبكي، وترك طعامه[٢].

وأنتم إن خرجتم دعاة إلى بلاد نائية فلعل الله أن يُجري على أيديكم ثماراً قد لا تشهدها عيونكم، ولكن يتواصل لكم أجرُها وبرها،

(١) «صحيح البخاري» (١٢٧٥).
(٢) «صحيح البخاري» (١٢٧٥).

وإنّ الذين يهتدون على أيديكم ستُكتب حسناتهم في سجلّ حسناتكم، وهكذا أبناؤهم ومَن يهتدي على أيديهم، وعندما تغادرون هذه الحياة فإنا نحتسب أن يستمر لكم أجر كلّ مَن انتفع بدعوتكم، فأجر الدعوة متضاعف متتابع، وهو يشبه التسويق الشبكي الهرمي، والذي يزداد انتشاراً وتفرّعاً إلى ما لا نهاية، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

جاء سائلٌ لأحد العلماء وقال: أريد أن أحج عن النبي ﷺ، فقال له الشيخ: حج عن نفسك، وحجّتك عن نفسك يصل مثل أجرها إلى النبي ﷺ؛ لأنه هو الذي دلَّك عليها، فكل ما نعمله من خير يذهب للنبي ﷺ مثل أجره، وكذلك كل من علَّمَنا وكل مَن علّمْناه، وكلُّ مَن دعانا وكلّ مَن دعوناه.

هدف يقود جميع الأهداف

ذهب النبي ﷺ إلى الطائف يعرض دعوته، عسى أن تجد قلوباً مقبلة وآذاناً صاغية، فأعرضوا عنه، وردّوا عليه أسوأ الرد، وحرَّضهم مَن كان عندهم من قريش على شدة الصدود وسوء الرد.

فعاد ﷺ مغموماً مكروباً، لأنه سيعود إلى مكة فتتجرأ عليه قريش أكثر مما تجرأت، وتشمت به أكثر مما شمتت، وكان مستغرقاً في همّه لم يستفق إلى نفسه إلا في قرن الثعالب، وهو مكان يبعد عن الطائف (٤٦) كم.

فإذا جبريل يخاطبه: «**إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَاه مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيه، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ**» -وهما الجبلان المحيطان بمكة-، وكان مصير قريش بين شَفتَيِ النبي ﷺ، وكانت كلمة منه تكفي أن يعاجَلوا بالعقوبة ويُدفَنوا تحت أحجارها، لكن النبي ﷺ استدفع العقوبة، وتجاوز ألمه وغمه،

وما ينتظره منهم، وامتد أمله إلى الأجيال القادمة، فقال: «**لَا، بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[1].

لقد كان طمع النبي ﷺ في الهداية أقوى مِنْ ردّة الفعل، وأقوى مِنْ شهوة الانتقام، وكان أمله بالهداية أقوى من إصرارهم على الضلال، واتسع أمله لينتظر الأجيال القادمة، عسى أن تكون محل القبول للحق والاستجابة للدعوة.

ولم يُخَيِّب اللهُ رجاءه، بل حقق أمله، فَقَرَّت عينه وهو يرى أبناء زعماء الكفر يَحفّون به مؤمنين برسالته وتابعين له، فأبو جهل أسلم ابنه وابنته، وعُقبة بن أبي مُعَيط أسلم ابنُه وابنته، والوليد بن المغيرة أسلم أبناؤه، وعُتبة بن ربيعة أسلم ابنه وابنته، وأُمية بن خلف أسلم ابنه.

فانظر كيف أن النبي ﷺ في ساعة الغم والكرب، وتوقع شدة الأذى، ووقوع الشماتة، لم يستجب لردّة الفعل التلقائية، ولم يستجب لشهوة الانتقام، وهي أقوى الشهوات وأعنفها، وكان أقوى من هذا كله إرادة هداية قومه واستنقاذهم، ولو احتمل كل هذا الأذى في انتظار استجابة الأجيال القادمة.

ولمّا أرسل النبي ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي إلى قومه دَوس يدعوهم، أَبَوا عليه وأعرضوا عنه، فقدم الطفيل وأصحابه إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله إن دوساً عصت وأبَت، فادع الله عليها،

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١).

فرفع النبي ﷺ يديه يدعو، فقيل: هلكت دَوس، فقال ﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ دَوْساً وَأْتِ بِهِمْ**»[1].

لقد كان طلب الهداية واستنقاذ البشرية هو الهدف الذي يقود جميع الأهداف، مقدَّماً على مرادات النفوس وردّات الفعل.

ولذا طوى النبي ﷺ عداوات كثيرة واحتواها، إذا كان ثمن ذلك رجاء الهداية، فتألف مَن كان يوماً أشدّ الناس عداوة له حتى أضاءت قلوبهم بالإيمان، وصاروا من حمَلة الدين والمجاهدين في سبيله.

وفي هذا درس بليغ لكل مَنِ انْتدَب نفسه للدعوة أن يكون هذا الهدفُ نُصْبَ عينيه، يصمد إليه بقوة وثبات، وألا تصرفه عنه ردّات فعل آنية، فدعوة الناس وهدايتهم هي الهدف الذي يقود جميع الأهداف، وستواجهه عوائق واستفزازات ومثيرات، فليتسلح لها بالصبر، ولذا لمّا أمر الله نبيه بالنذارة قرن معها الأمر بالصبر، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١، ٢]، ثم قال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ٧]، فالطريق يحتاج إلى صبر ومصابرة، وثبات في السير، ووضوح في الرؤية، وإصرار على الهدف.

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤).

ثانياً

ماذا عن الداعية؟

لا نقطف الثمرة قبل نضجها

إنّ علينا أن نعمل بروح مصعب بن عمير، روح مَن هاجر ليعمل، مِن غير أن يتعجل الثمرة، وتعجبني الكلمة النورانية التي قالها أحد دعاة الإسلام، قال: «إن العامل لهذا الدين ينبغي ألا يتعجل شيئاً من أجره، ولو كان هذا الأجر أن تتحقق النتائج على يديه». فليس من الصواب أن ننفر للدعوة، ثمَّ نشترط على الله النتائج والإنجازات ونحدد توقيتها، ولكنْ ندعو إلى الإصلاح ما استطعنا، ونجتهد في العمل دون تعجّل النتائج، وإنما يتولى النتائجَ ربُّنا الذي نعمل له، وقد بقي النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، وكان الناس يدخلون في الإسلام أفراداً، ثم بعد الهجرة جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وهكذا نحن في دعوتنا نبذل جهدنا، وقد تقرّ أعيننا برؤية الثمرة، وقد تدركها أجيال تأتي بعدنا، تتعاهد البذرة، وتقطف الثمرة.

وإن الموفَّق يعمل أفضل ما يستطيعه في وقته، وبحسب الإمكانات المتاحة له، والإمكانات تبدأ وتتسع بالعمل، وليست العبرة بنقص البدايات، ولكنْ بكمال النهايات.

وعلينا أن لا نقع في أسر عقدة الإتقان وانتظار الكمال، فهذه من أعظم العوائق في العمل، كما أنّ علينا أن لا نستغرق في التجارب التاريخية المبهرة، فقد وُصفت لنا حال اكتمالها، ولو اطلعنا عليها حال بداياتها اليسيرة لوجدناها تشبه بداياتنا.

وعلينا أن لا نزهد في شيء يسير نستطيعه من أجل شيء كبير نتمنّاه، وأن لا نقع في حبائل الشيطان، فإنه يُطمع الإنسان بما لا يستطيع، ويُزَهِّده فيما يستطيع، لأنه سيعجز عما يطمع فيه، ولن يفعل ما يمكنه.

وإذا أردنا أن يبارك الله عَزَّوَجَلَّ في عملنا فعلينا أن نعمل وفق الممكن والـمُتاح، وأن نُسخِّر كل ما نستطيع ممّا هو بين أيدينا، ولا ننتظر عونا يأتينا من أحد، فهناك أناس ذهبوا بإمكانات محدودة جدا جدا، ولكن كان معها نوايا طيبة، فبارك الله في الجهود، أمّا مَن إذا ذهب انتظر النَّاس أن يمدوه ويرسلوا إليه، فإنّه يعيش في حالة انتظارٍ، ويُوكَل إلى من اتكل عليهم.

وإذا بدأ بما يستطيع مهما كان محدودا فإنّ الله يبارك عمله ويزكيه، ثم يأتيه ما لم يطلبه.

ولنا أسوة بنبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي تحرر من مشكلاته الخاصّة مِنْ غربة وعبودية وظلم ثم سجن، ومع ذلك انهمك وهو سجين في همّه وقضيته الكبرى وهي التوحيد والدعوة إلى الله، ولو كان غيره لملأ آذان صاحبيه في السجن بقصته ومأساته، ولكنه يتحدث كما لو كان في غير السجن، وكأنه لم يقطع ذلك الطريق الموحش بظلم القريب والبعيد، فحوّل السجن إلى مدرسة وميدان دعوة،

ووجّه الدعوة ببراعة واقتدار، فما هي الإمكانات لدى سجين غريب؟!
ومع ذلك بذل جهده، وعمل بإمكاناته، واستغلّ الفرصة، وأحسَنَ العرض، وقدّم درساً لكلّ داعية أن يعمل بإمكاناته مهما قلّت، ويستغلّ الفرصة إذا سنحتْ، وستتحقّق النتائج بتوفيق الله وعونه.

وإنّ الإنجازات يدعو بعضها بعضاً، وأعظم محفِّزٍ للداعِمِين هو رؤية عملك وأثرك، فهذا أكبر دعاية ودعوة للمشاركة والتعاون.

ولو قُدّر أنه لم يأتك دعمٌ من أحد فحسبك أنّك بذلت المستطاع، وسرتَ في طريق الرّسل: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود: ٨٨]، فتلقى الله وأنت تقول: ربّاه أما ما استطعت فقد بذلته، فتقبّلْه وباركْه.

الداعية والتنمية العلمية

عندما أراد النبي ﷺ إرســال داعية إلــى اليمن وفيهم أهل كتاب وعلم أرســل عالماً من علماء الصحابة، وهو معاذ بن جبل، الذي قال فيه ﷺ : «**أَعْلَمُ أُمَتــي بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ**»[1]. لأنه الأليق بدعوتهم لتمكنه العلمي، وحال البشــرية اليوم أكثــر تطوّراً من حيث الثراء المعرفيّ وازدحام المعلومــات، ولِذا فمن المهم أن يظل الإمام والداعية في حال تزوُّدٍ علميٍّ، وأن لا تشــغله كثرة الأعمال الاعتيادية والمشاغل اليومية عن تطوير نفسه والاستزادة من القراءة والتعلم، وقد قيــل: «الجهل لا يحتاج إلى أكثر مِن تــرك التعلم». وأي صاحب علم أو تخصّصٍ إذا ترك تطوير نفســه تقــادم، وتجاوزه الوقت، وأصبحت معلوماته قديمة جدا يكررها فيصبح مألوفا، ثمّ مملولا.

فينبغي على الداعية أن يكون لديه وجبة قراءة واستماع تُطوِّر معلوماته وتؤكدها، خصوصا في القرآن وتفسيره، وفي السنة،

(١) يُنظر: «سنن ابن ماجه» (١٥٤)، و«جامع الترمذي» (٣٧٩٠)، و«علل الدارقطني» (٢٦٧٦).

وفي السيرة، وفي كتب الدعوة ونحوها، مما ينمّي معلوماته، كما أن عليه أن يطور مهاراته، كمهارات التواصل، ومهارات الحوار، ومهارات الذكاء العاطفي، ونحو ذلك مما يسهل عليه أداءَ دورِه بطريقةٍ أكثرَ احترافية وتأثيرًا.

ومن تطوير الداعية نفسه تحصيل بعض العلوم الإنسانية المعاصرة، كعلم الاجتماع، وعلم النفس، والإعـلام، ومقارنة الأديـان، ولو بمقدمات عامة في هذه العلوم، فلها أثر بالغ في تأثير الداعية والدعوة في الناس.

كما أن عليه احترامَ التخصص، فالداعية لا يلزم أن يكون مفتياً وقاضياً، وإنما يجتهد فيما يحسن، وقيمة كل امرئ ما يحسنه، وفي حال تعرض لسؤال لا يملك الإجابة عليه فعليه أن يكون واضحاً في جوابه بأنه لا يعلم الجواب الآن وسيبحث عنه، أو يوجه السائل إلى جهة الفتوى الموثوقة التي تفهم واقعه وظروفه.

كما أن عليه أن يتبصّر في نقاط القوة والضعف لديه، فإن القدرات تتفاوت بين المجالات كالتعليم والدعوة والمناظرة والإعلام، فيستثمر ما يحسنه ويطوّره، ويتجنّب ما لا يُحسنه ولا يلائمه، وقد علم كلّ أناسٍ مشربهم.

وأيّا كان تخصصك واهتمامك فإنك ستجد في الثغور القائمة ما يناسبك مما تسد به حاجةً، وتفرج به كربةً، وتحق به حقاً، وتبطل به باطلاً، وتزيد فيه من الخير، وتقلل من الشر.

وقد تحملك الظروف أن تغير تخصصك ومجال اهتمامك، أو أن تضيف تخصصاً جديداً يصبح من اهتمامك؛ لأن من صدق عبودية العبد لربه أن يتحرك بحسب الثغور القائمة، والمدار في ذلك على الموازنة بين رغبة الذات وتلبية حوائج المجتمع، ومن بورك له في شيءٍ فليلزمه[١].

وعلى الداعية عندما يغترب أن يتعرف على البلد الذي سينتقل إليه: تاريخه، وثقافته، وهوية أهله الحضارية، والتنوع القبلي، والأعراف والعادات، وعدد المسلمين فيه، وظروفهم وحاجاتهم، والتعرف على القيادات المؤثرة في البلد، وما يتميز به البلد من ثروات وإمكانات، بحيث يسلك بدعوته مسلك العارف بهذا البلد الخبير به، الذي يحسن التعامل مع أهله، ويراعي خصوصيتهم في التعامل، فما يناسبُ في بلد لا يناسب في بلد آخر، ونوعُ الخطاب في بلد غيرُه في بلد آخر، وهكذا...

---

(١) من منشورات الشيخ محمد الأسطل.

للاستجابة مراحلها

ينبغي أن لا يثبّطنا عند عرض الإسلام ما يظهر على بعض مَن ندعوه من بوادر الإعراض والصدود، فعرض الدعوة بمجرّده عبادة، وللاستجابة مراحلها، وقد تتدرج الاستجابة، وربّما كانت الكلمة التي تلقيها بذرة تأخذ وقتها في النّموّ والتجذّر، لتنبت وتُثمر بعد أمد لا تدركه، وربّما كانت كلمتك حجر أساس، ثم يأتي بعدك مَن يبني عليه.

لقد ذهب النبي ﷺ إلى الطائف داعياً طالباً النصر، فأخبر خالد بن أبي جبل العدْواني أنه أبصر رسول الله ﷺ في مُشرَّق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر، فقال: سمعتُه يقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] حتى ختمها، قال فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام[١].

(١) «مسند أحمد» (١٨٩٥٨)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٧٧٨). ومُشرَّق ثقيف هو سوقهم. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٦٤).

لقد ردت ثقيف على النبي ﷺ دعوته، وأعرضوا عن رسالته، وعاد النبي ﷺ مكروباً مغموماً، لعدم استجابتهم، ولكن هل كان يعلم ـ بأبي هو وأمي ـ أنه قد ألقى بذرة دعوته في قلوب ستعيها من بعد وتؤمن بها؟! وكان من المتأثرين بها خالد، الذي حفظها مشركاً ثم قرأها مسلماً.

وأرسل النبي ﷺ رسالة إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام؛ فسمعها أبو سفيان وكان عند هرقل حين قرئت عليه، ورأى تأثر هرقل بها، فتأثر أبو سفيان بالرسالة وحالة هرقل عند تلقيها، وكان هذا بداية خضوعه للإسلام، إذ قال: «ما زلت موقناً أنَّ أمر رسول الله ﷺ سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره»(١). فانظر كيف أن من أُرسلت له لم يستجب لها، ولكنْ تأثَّر بها من سمعها وهي لم تُرسل إليه، وكانت تلك البذرة التي أثمرت الاستجابة.

وهكذا دعوتنا قد تكون هي المؤثر الناقل إلى الإسلام، وقد تكون بداية التأثير والتّأثّر، ثم تنضج الثمرة، أو يأتي مَن يُتِمّ المهمّة.

إنّ كلّ مَن تدعوه هو مشروع استنقاذ، فإن تحقّقت هدايته فهو نجاح لك وله، وإنْ أعرض فقد نجحت أنت، وبلغتْ دعوتُك محلّها، ووجب لك أجرها، وربّما كانت الهداية مدّخرة لكَ في وقت آخر، أو في قلبٍ آخر.

---

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (٢٩٤٠).

لا تستتبع الماضي ولا تلتفِت إلى الوراء

سألت عائشـــة النبي ﷺ : هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ فأخبرها بما هو أشد عليه من يوم أحد وهو يوم رجوعه من الطائف إلى مكة، بعد أن لقي الصدود من أهل الطائف وتوقع الجراءة والشّماتة من أهل مكة، فكان كربه لذلك أشـدّ الكرب، حتى كان أشـــدّ من ألمه يوم أحد، والشـــيء الذي يلفت النظر في هـــذا الحديث أن النبي ﷺ لم يذكر هذه القصة إلا بعد أن سألته عائشة، ولم نجد لهذه القصة ذكرا في حديث آخر، وربما لو لم تسأله عائشة عن ذلك لما علمنا بهذه الحادثة التي كانت شـــديدة الوقع على نفس النبـــي ﷺ ، وهذا يدل على أن النبي ﷺ لم يكن يجترّ الذكريات، ولا يســـتتبع الماضي، وإنما كان منشغلا بالمســـتقبل وإنجازه، ولذلك لن تجد في حياة النبي ﷺ في المدينة أحاديث عن مكة وذكرياته فيها وأشواقه إليها، ولن تجد في حياة الصحابة معه في المدينة انشغالاً بالحديث عن حالهم في مكة، لقد كانت أبصارهم موجهة إلى مشـــروعهم المستقبلي، وليس باجترار الماضي،

والتشـــوّق لما فات، بل إنّ المهاجرين من مكة إلى المدينة حُرِّم عليهم الرجـــوع إلى مكة بعد الفتح، فلم يرجع أحـــد من المهاجرين إلى مكة ليُقيمَ فيها، وإنما كان مشروعهم مستقبليّاً ماضياً إلى الأمام، لذلك انتشر الصحابــة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآفاق، ولـــم يرجع أحد إلى بلده، وفي هـــذا درس بليغ لكل مهاجر يدعو إلى الله أن ينظر إلى مشـــروعه المستقبلي، ولا يتعثر بذكريات الماضي والتشوّق والحنين إلى ما تركه.

فالمستقبل في مشروعه الذي انتدب نفسه إليه، وأوقف بقية عمره عليه، وما أسرع ما تُطوى صحيفة العمر ليجد حصيلة مشروعه مدّخرةً أمامه، أمّا من انشغل بالالتفات إلى الوراء فإنه لن يقطع طريقه، بل ستتشتّت عزيمته، ويتعثّر مسيره:

ومشتَّتُ العزَمات يذهب عمره حيـــرانَ لا ظفـــرٌ ولا إخفـــاقُ

تحريش الشيطان

بعد أن أنجز النبي ﷺ مشروعه الرسالي فأتم الله النعمة، وأكمل الدين، وبُلغت الرسالة وودع النبي ﷺ الناس في حجة الوداع، كان من أعظم ما حذر أمّتَه منه في خطبة الوداع تحريشُ الشيطان بينهم، فقال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[١]. ومن أعظم مكائد الشيطان تحريشه بين الدعاة والعاملين إلى الله، واصطناع الخلافات بينهم، وإذكاؤها وإلباسها لبوس الدين، وأشد العداوات ما نجح الشيطان في إيغارها بين المسلمين باسم الدين، ولذلك ينبغي أن يكون لدى العاملين في الدعوة احتياط كامل من نزغات الشياطين، التي يلقيها بين الدعاة بأنواع من الاختلافات التي تتحول إلى خلافات، ثم إلى عداوات، ومنها المنافسات والصراعات في ساحة العمل الدعوي؛ وكأن الأخ يحاول أن يلغي عمل أخيه ويستأثر بالنجاح والإنجاز وحده، ومع أن الساحة واسعة تستوعب كل هذه الأعمال، ولا تحتمل هذا التزاحم والتنافس.

---

(١) «جامع الترمذي» (١٩٣٧).

ومن أهم سبل الوقاية إغلاق الباب عن الخلافات الموجودة بين المسلمين في بلادهم فلا ترحل معهم حيث هاجروا، وتكون الجناية مضاعفة حينما تصدر هذه الخلافات الواقعة بين المسلمين في البلاد الإسلامية بين جماعاتهم وأحزابهم وطوائفهم إلى المسلمين في الخارج، ويشغل بها أناس حديثو عهد بالإسلام.

فَليُترك المسلمون على براءتهم الأصلية، بعيدا عن هذه النزاعات والخلافات، ولنقدّم لهم الإسلام وكأن النبي ﷺ قد توفي هذه الساعة، ولا يزال الدين غضّاً كما أُنزل، والرسالة بيضاء نقية كما بلغها ﷺ.

ومما يساعد على ذلك التقليل من المتابعة اليومية لوسائل التواصل المشغولة بهذه النزاعات، وإذكاء هذه الخلافات، فإنها تجعلك منغمساً في تلك البيئة الضيقة غير قادر على الخروج منها والانطلاق في آفاق الله الواسعة.

ومن المهم الوقوف عند وصاة النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين أرسلهما إلى اليمن، وهي قوله ﷺ: «**وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**»[(١)].

إن الاختلاف أمر متوقع في كل تجمع بشري، وكذلك وجود الاختلاف بين الدعاة في اجتهاداتهم، لكن المهم سياسة هذا الاختلاف، بأن ينتهي إلى التطاوع وليس التنازع،

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (١٧٣٣).

وأنه لا بُدَّ أن يتنـازل أحد الطرفين للآخر، وأن يتفـق الدعاة على أمر مفضول خير لهم من أن يتشـاحنوا على أمـر فاضل في رأي بعضهم، والدعوة إلى الإسـلام في منابته الأولى لا تحتمل مثل هذه الخلافات، والتي ربما تشتط حتى تكون سببا للصد عن دين الله، فليتذكر كل الدعاة هـذه الوصاة النبوية ويحرصوا على حسـن تطبيقهـا، وليعيدوا تذكُر «وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا».

وعلينا الحرص على الوحدة بين المسلمين وبخاصّة العاملين في الدعوة، وعدم تعميق الخلافات المذهبية والحزبية والطائفية، وليكن الشعار: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وإنما يكون التعامل والتعاون في مساحة المتفق عليه والمشترك، وكلما فُعِّلَتْ مساحة المتفق عليه تقلّصت مساحة المختلف فيه.

وسيوجد في كثير من البلاد نوعيات من ذوي الطباع الصعبة الصراعية الـمُولعون بإذكاء الخلاف، وحب المواجهة، فينبغي عدم التفاعل مع هذه الفئة أو الانشغال بها، وإنما يجتهد في تحييدها ما أمكن إذا لم يتيسر كسبها واحتواؤها.

زاد التزكية

إن النبي ﷺ قد تلقى في بداية دعوته هذا النداء الإلهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١-٥]، لقد كان التوجيه من الله لنبيه لتلقّي القول الثقيل ثم تحمّل مسؤوليةِ بلاغه هي الاستعدادُ لذلك بهذا الورد التعبدي وهو قيام الليل، ولِذا فإن من أعظم ما يستعين به الداعية في دعوته تزكيةُ النفس، بإدمان الذكر، والمحافظة على الأوراد، وحسن الصحبة للقرآن، وعبودية الصلاة، وبخاصّة قيام الليل، وبقدر زكاء النفس وقوة الصلة بالله يزكو العطاء، ويبارَك العمل، ويتنزل المدد الإلهي والعون والتوفيق من الله، وأهل المعاملة مع الله على كلماتهم نور، ولسلوكهم تأثير، ولشخصياتهم إشعاع، وبقدر تشبع الإنسان بحسن الصلة بالله يعظم وقع كلماته وتأثيرها، وهذا مما ينبغي أن نتواصى به ونتعاهد أنفسنا بالمحافظة عليه: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨]. فالدعوة معاملةٌ مع الله وتعبّدٌ له، وإنما يُستمدّ العون على حسن العبادة بأمداد الله وعونه،

قال ﷺ لمعاذ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[1].

إن العناية بالقلب تنسّكاً وتضرعاً، والعناية بالتزكية والسلوك؛ من أعظم ما ينقي القلب ويزكيه، ومما يعين على ذلك القراءة في كتب التزكية القلبية من مثل: «مختصر مدارج السالكين»، و«مختصر إحياء علوم الدين»، و«رسالة العبودية» لابن تيمية، وكتاب «العقيدة والسلوك» للندوي، ونحوها من كتب الرقائق، فإن تعاهد القلب وتزكية النفس عصمة من نزغات الشيطان وأدوائه الخفية التي يسلكها في القلوب في أوقات الغفلات، وإنّما تنشأ أوبئة العجب والتنافس والتشاحن في غفلات الإنسان عن تعاهد قلبه، وقد قال ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، حتّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ**»[2]. والغَين هو ما يغشى القلب كما يغشى الغيم السّماء، فكان ﷺ يتعاهد قلبه بكثرة الاستغفار ليظلّ قلبه على يقظته واستنارته، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو الموصول قلبُه بالله، وهو أعلم الخلق بالله وأخشاهم له يتعاهد قلبه هذا التعاهد، فكيف ستكون حاجتنا إلى تزكية قلوبنا وتعاهدها عن غشاوة الغفلة، وتطهيرها من أمراض القلوب وأهواء النفوس؟! اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكّها أنت خير مَن زكّاها.

(١) «سنن أبي داود» (١٥٢٢)، و«سنن النسائي» (١٣٠٣).
(٢) «مسند أحمد» (١٧٨٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٠٢).

ولا تمنن تستكثر

لما أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بالنذارة أوصاه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قبل أن يشرع بها بوصايا جامعة تمثل أصولاً في الدعوة عظيمة يجب استحضارها والعمل بمقتضاها، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١-٧]، فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ لما يبدأ بعد في دعوته، ومع ذلك يقال له من أول الطريق: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

قال ابن جرير الطبري: معنى ذلك: «ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح»[١].

إذن هذا بيان لطبيعة هذه الدعوة، فلا مكان فيها للمِنَّة والإدلال على الله بالعمل، والتكثر بالإنجازات والأعمال.

(١) «جامع البيان» للطبري (٢٣/ ٤١٦).

ومن الآفات التي تقدح في إخلاص الداعية: منته على ربه، وعلى الدعاة من حوله، فديدن بعضهم بلسان الحال أو بلسان المقال: أنا قلت، وأنا فعلت. وهجّيراه أتذكرون يوم فعلت كذا وكذا... ولا يزال يعيد ثم يعيد حتى يتعاظم في نفسه، ويُعجب بعمله، ويتعالى به أمام الناس.

إن ثمة حقيقة جديرة بالتأمل، وهي أن قيمة الداعية تسقط عند الناس إذا رأوه يتطلع إلى مغنم مادي، أو يتعلق بجاه ومنصب، أو ينتظر منهم جزاءً وشكوراً، ولهذا كان الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام يقولون لأقوامهم بوضوح لا لَبْس فيه ولا غموض: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

ومن الأدواء الخفية أن بعض من ينتسب إلى الدّعوة قد لا يتعلق بالمال، لكنه يتجمل بالدعوة، ويتشوّف للجاه والشرف والسمعة والظهور، والتصدّر في المجالس والمنتديات ووسائل الإعلام، والتقدم في الأماكن العامة، وقد يغضب لنفسه إذا رأى من بعض الخاصّة أو العامة غير ذلك! وكثيراً ما يكون التطلع إلى مكسب معنوي، كالجاه والتقدير والاحترام ونحو ذلك أعظم من التطلع إلى مكسبٍ مادّي.

وحقيق بكل داعية أن يتدبر قول النبي ﷺ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ أَفْسَدَ لَهَما مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»(١).

(١) «مسند أحمد» (١٥٧٩٤)، و«جامع الترمذي» (٢٣٧٦).

قال سفيان الثوري: «ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإذا نوزع في الرياسة حامى عليها وعادى»[١].

وقال ابن رجب الحنبلي: «وأما حرص المرء على الشرف فهو أشد هلاكاً من الحرص على المال، فإن طلب شرف الدنيا والرفعة فيها والرياسة على الناس والعلو في الأرض أضرُّ على العبد من طلب المال وضرره أعظمُ، والزهد فيه أصعب، فإن المال يُبذَل في طلب الرياسة والشرف»[٢].

وعند التأمل في الواقع الدعوي هنا وهناك سنجد بوضوح أن مِنْ أسباب بعض الخلافات والنزاعات الدعوية، والتشققات المؤسسية التي تحدث في بعض الأوساط الدعوية: التنافسُ على التصدر والظهور والرئاسة، والإخلاص عزيز.. عزيز، ولهذا كانت وصية يحيى بن أبي كثير: «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل»[٣].

والخسار والله كل الخسار أن يجهد الداعية نفسه، ويبذل علمه وماله، ويضحّي بحياته ووقته، وينشغل عن أهله وولده، ثم تكون الدعوة وبالاً عليه في الآخرة، بسبب سوء نيته وفساد قصده، وتطلعه لمغنم عاجل، أو تشوفه إلى ثناء الناس وحمدهم، قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٣٩).
(٢) «شرح حديث ما ذئبان جائعان» لابن رجب الحنبلي (٢٠).
(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٣/ ٧٠).

وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وليتأمل الداعية إلى الله تعالى هذا التحذير الشديد الذي رواه أبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُم عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ**»(٢). وما أخسر الإنسان الذي تكون الدعوة إلى الله حجة عليه يوم القيامة، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»(٣).

❁❁❁

(١) «مسند أحمد» (٢١٢٢٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٨٦).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٢٣). باختصار من «الأربعون الدعوية» للشيخ أحمد الصويان.

الداعية المُقتحِم

يصف ربيعة بن عبَاد الدّيلي مشهداً وعَتْه ذاكرتُه عن رسول الله ﷺ في بداية البعثة، فيقول: «رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، يدخل على الناس في مجامعهم ويقول: «**أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا**». والناس متقصِّفون عليه، وخلفه رجل أحول وضيء يقول: نحن قومه أعلم به، إنه كذاب. فسألتُ: من هذا؟. قالوا: هذا ابن عبد المطلب، وهذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب»[(١)].

هذا المشهد يبين لك أن النبي ﷺ في دعوته كان في حال اقتحام، فيشهد مجامع الناس وأسواقهم ونواديهم يعرض فيها دعوته، ولم ينتظر أن يأتي إليه الناس حيث هو، بل كان هو ﷺ يذهب إليهم في هذه المجامع والأسواق.

(١) «مسند أحمد» (١٦٠٢٣)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٤٢٣).

وعليك أن تتصور أن أسواق الجاهلية هي الأسواق التي يباع فيها الخمر والأصنام، وفيها المنافرة والتفاخر بالقبائل ودعاوى الجاهلية، كل هذه المحظورات لم تمنع النبي ﷺ أن يغشى هذه التجمعات ليعرض فيها دعوته، ويبلغ البشرية الخير الذي أرسل به.

ولذلك ينبغي أن يكون الداعية صاحب مبادرات في الحضور في التجمعات، والنوادي، والتواصل مع الهيئات الحكومية، والهيئات الاجتماعية، ومنظمات المجتمع المدني، إضافة إلى غشيان الناس في تجمعاتهم العامة، مثل الأسواق والحدائق وغيرها من الأماكن المأهولة بالاجتماعات، بحيث يكون صاحب اقتحام اجتماعي، لعرض الدعوة وتبليغها للناس، ومَن لا تجده في هذا التجمع تجده في تجمع آخر، ومَنْ لا يحضر في هذا اللقاء تجده في لقاء آخر، وبهذا تُشِعّ الدعوةُ وتدخلُ في كلِّ اتجاهات المجتمع ومناحي حياته.

ومن ذلك الاندماج مع أطياف المجتمع وطبقاته، وقد كان نبينا ﷺ يسع كل الناس بحسن خلقه، فعن أنس رضي الله عنه: أن خياطاً دعا النبي إلى طعامٍ، فقدّم إليه قديداً ومرق دبّاء، ثم جعل يشتغل بعمله، وأقبل على عمله، قال أنس: «فجعل رسولُ الله ﷺ يأكل من ذلك الدُّبَّاء ويعجبه، ورأيته يتتبَّع الدُّبَّاء من حول الصَّحْفَة، فلم أزل أحبُّ الدُّبَّاءَ من يومئذ»[1].

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٩٢، ٥٤٢٠، ٥٤٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤١).
والصحفة: هي طبق الطعام من الخشب، والدّبّاء: هي القرع.

إن الخياط من الطبقات الاجتماعية الكادحة، ومع ذلك وجد في نفسه الجرأة أن يدعو النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيته، واستجاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخلقه العظيم لهذه الدعوة، وشارك هذا العامل المُكافِحَ طعامَه القليل، ولك أن تتخيل شعور هذا الخياط قبل هذه الدعوة وهو يستعدّ لها ويخبر أهله أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيزوره ويتناول طعامه، وأن تتخيّل حديثه بعد ذلك في بقية عمره عن زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم له، وأكله من طعامه، وما أثر ذلك عليه، وأثره على مَن يسمعه منه.

وهكذا كانت مساحة القلب النبوي الكبير تستوعب جميع طبقات المجتمع وأطيافه، وما كان أحد يشعر بالتهميش والدّونية في حضرته صلى الله عليه وآله وسلم .

ثالثاً

طرائق الدعوة

أخذ الدين باعتزاز وقوة

حينما نعرّف بالإسلام فإن علينا أن نعرضه بيقين وثقة، وأن لا ندعو الناس وكأننا نتسول للإسلام أتباعاً، فإذا أسلم أحدهم شعر أنه أصبح من مسؤولية المسلمين، وأن على المسلمين أن يعتنوا به، ويتحملوا مسؤوليته، وهذا خطأ في طريقةِ الدعوة، بل علينا أن نُشعِره أنك حين أسلمت قد كسبت مكسباً عظيما بالإسلام، وتحملت مسؤولية عظمى بين يدي الله في بلاغ هذا الدين الذي هداك الله إليه، وانتماؤك للإسلام هو غنيمة لك، وليس غنيمة للإسلام؛ ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، فيعلم أنه هو المستفيد الأكبر من إسلامه، وأن فرح إخوانه المسلمين به هو فرح لأجله هو، وأن تُغرس في نفسه معاني الاعتزاز بالإسلام، وأن يزداد بإسلامه قوّة وعزّة، وثقة وعزيمة و«**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»[١].

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٦٤).

وعندما يُسلم أحد أمامنا فينبغي أن يشعر بالاستقلالية، وأنه ليس تابعاً لنا، وإنما هو أخٌ مثلنا، وأن لا نبالغ في الاحتواء والحماية بما يُشعره بضعفه والخوف عليه.

لقد ذهب سعد بن معاذ في أول سنة من الهجرة إلى مكة معتمراً وعمره في الإسلام سنتان، ولقي في مكة صناديد الكفر: أبا جهل وأمية بن خلف والنضر بن الحارث وغيرهم، ولم يبلغنا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حذّره عندما ذهب، أو سأله عندما عاد.

ومثله ثُمامة بن أثال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أسلم ثم ذهب مِن فوره إلى مكة وفيها المشركون، ليواجههم بإسلامه ويعلنه بين ظهرانيهم.

لقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُشعر كلّ مَنْ أسلم بقوة الحق الذي معه، وضعف الباطل الذي سيواجهه، فينطلق كلٌّ منهم وهو مصفَّح إيمانيّاً.

قوة التأثير وسرعة الانتشار

أتذكر كلما زرت بلداً فيه أقلية مسلمة حديث النبي ﷺ عندما قال لأصحابه أول ما قدم المدينة: «**أَحْصُوا لِي كَمْ يلفِظُ بِالإِسْلَامِ؟**»، فقالوا: «يا رسول الله، أتخشى علينا القلة ونحن ما بين الستمئة إلى السبعمئة؟»[(١)].

يعني أن تعداد المسلمين في المدينة في أول سنة بعد الهجرة ما بين ستمئة وسبعمئة، ثمّ بعد عشر سنين حج النبي ﷺ حجة الوداع وقد أسلم أهل الجزيرة العربية كلهم، وحضر منهم إلى موسم الحج أكثر من مئة ألف، فهؤلاء كلهم كيف أسلموا؟ إنّهم أسلموا بدعوة السبعمئة، إذن هؤلاء السبعمئة كانوا طاقة فاعلة، أسلم بسببهم سكان الجزيرة العربية كلها، ثمّ تحملوا مسؤولية هذا الدين بعد وفاة النبي ﷺ فانتشروا في أصقاع الأرض،

(١) «صحيح مسلم» (١٤٩).

فإذا هؤلاء السبعمئة الذين كان مسجد النبي ﷺ يجمعهم كلّهم في المدينة تتناثر قبورهم بين قارات العالم القديم: آسيا وإفريقيا وأوروبا، وكلّ ذلك حملاً لرسالة الإسلام، وبلاغاً لدعوة محمد ﷺ.

وفي عصرنا هذا اضطُرَّ كثيرون للهجرة إلى أوروبا في القرن الماضي لأسباب مختلفة، ثم نتج عن ذلك توطين الإسلام في أوروبا وانتشار المساجد والمراكز الإسلامية وكثرة المسلمين، ومع أن أكثرهم من المهاجرين، إلا أن هناك فئاماً كثيرة دخلت الإسلام وعرفته من خلال دعوة الدعاة إلى الله هناك، حتى بلغ عدد المسلمين في أوروبا أكثر من خمسين مليوناً أي (٦٪) من سكانها، وهو عدد متزايد باستمرار.

والآن نجد أننا بحاجة إلى استنفار دعوي إلى أمريكا الجنوبية، التي يتجاوز عدد سكانها (٤٠٠) مليون، ولا يبلغ عدد المسلمين فيها المليون، فإذا وجد في هؤلاء مَن يحمل هم الدعوة ويتفرغ لها بإخلاص وينفر لها بجِدٍّ فإن الإسلام سينتشر في هذه القارة كنور الفجر وضياء النهار، وعسى أن يكون من قرّاء هذا الكتاب مَنْ يقول: «أنا لها»، فيُحيي الله به أمة بعد مَوَات، ويُنقذها به بعد هلَكَة، ويكون له أجرهم وأجرُ مَن تبعهم إلى يوم القيامة.

ولذلك ينبغي أن نقول للجالية المسلمة في كل مدينة: كم عددكم؟ إنّ الصحابة كانوا في المدينة أول الإسلام أقل منكم، وأسلمت الجزيرة العربية كلها بإسلامهم، فهل سيعرف أهل مدينتكم أو أهل دولتكم الإسلام من خلالكم، وهل ستكونون سبباً في هدايتهم واستنقاذهم؟.

كيف ندعو الناس؟

لم تَمْنعه حداثة سنِّه، وهو الفتى الشاب، ولا مهابة رسول الله ﷺ، وهو الذي أُلقيَت عليه المهابة، أن يقصد إليه، يسأله الإذن بما يُخفِّف معاناته من استعار الشهوة وعنفوان الشباب، فها هو يأتي رسولَ الله ﷺ وأصحابُه حوله، فيقوم وِجَاهه، ويقصده بسؤاله، قائلاً: «يا رسول الله، ائذن لي في الزنا». وكان سؤالاً صادماً، استلفت إليه مَن كان حول رسول الله ﷺ، فصاحوا به: مه مه! إذ كيف يُستأذن بالزنا مَن نُزِّل عليه تحريمه؟ وكيف يأذن بالفاحشة مَن جاء لتطهير البشرية منها؟!.

فأقبل النبي ﷺ عليهم وقال لهم: «**دَعوهُ، أَقِرُّوه**». أي: اتركوه يستفسر، ولا تُفْزِعوه. ثم أقبل عليه فقال: «**أُدْنُ**». فدنا الشابُّ حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ، فقال له بأبوة المُعلِّم، وبصيرة الداعية، وبراعة المُحاوِر: «**أَتُحِبُّ أَنْ يفْعَلَ أَحَدٌ ذَلكَ بِأُمِّكَ؟**». فقال الشاب: «لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك». قال: «**فَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّ أَنْ يفْعَلَ أَحَدٌ ذَلكَ بِابْنَتِكَ؟**».

قال: «لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك». قال: «**وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّ أَنْ يفْعَلَ أَحَدٌ ذَلكَ بأختك؟**». قال: «لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك». قال: «**فَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّ أَنْ يفْعَلَ أَحَدٌ ذَلكَ بِعَمَّتِك؟**». قال: «لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك». قال: «**فَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، أَفَتُحِبُّ أَنْ يفْعَلَ أَحَدٌ ذَلكَ بِخَالَتِك؟**». قال: «لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك». قال: «**فَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، فَاكْرَهْ مَا كَرِهَ اللهُ، وأَحِبَّ للناس مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ**». وعرف الفتى أن ما حدَّث به لنفسه خطيئة تلوث القلب، فقال: «يا رسول الله، ادعُ الله أن يُطهِّر قلبي». فوضع النبي ﷺ يده على صدره، ثم قال: «**اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**». ومضى الشاب، ورمق الناس حاله، قالوا: فلم يكن ذاك الفتى يلتفت إلى شيء من ذلك بعد[1].

يلفت نظرك إدارة النبي ﷺ للحوار، واستثارته التفكير، وسلوكه أسلوب الإقناع، وتحميل العقل مسؤولية التبعية والتكليف، لقد كان يمكن للنبي ﷺ أن يقول لذلك الشاب: «لا أجد لك رخصة». وما نحسبه لو قيل له ذلك إلَّا سيرضى ويُسَلِّم، ولكن النبي ﷺ لفت ذهن الشاب إلى جوانب أخرى في قضية المتعة المحرَّمة،

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٢٢١١)، و«معجم الطبراني الكبير» (٨/ ١٦٢)، و«مسند الشاميين» (٢/ ١٣٩، ٣٧٣)، و«سنن البيهقي» (٩/ ٤٥)، و«شعب الإيمان» (٥٠٣٢).

لم يكن قد وَجَّه إليها نظره العقلي، وكان ذلك كافياً في تصوُّر بشاعة هذا الفعل، وعظيم ضرره؛ لينتهي به الأمر إلى قناعة عقلية، كما هو متابعة وتسليم، وهذا ما يجعل الداعية يتحمَّل مسؤولية الإقناع بالدعوة، وحَمْل الناس على مشاركته القناعة فيما يدعو إليه، ولو كان أحد يسعه الاستغناء عن ذلك لكان رسول الله ﷺ، ومع ذلك كان هديه وسنته استنفار العقل، واستثارة التفكير، والوصول بالناس من خلال التفكير السليم إلى القناعات الصحيحة، وبذلك خَلَّص البشرية من أغلالها الفكرية؛ لتتجه إلى رشدها، ورحم الله الأستاذ العقاد يوم أطلق: «التفكير فريضة إسلامية».

يلفت نظرك أن النبي ﷺ قدَّم الحجة المقنعة في وعاء عاطفي جميل، أشعر هذا الشاب بخصوصية النبي ﷺ وبأُبوته له، وبأن ما يأمر به هو النصح والشفقة والمحبة، وذلك يتجلَّى في نهي الصحابة عن الإنكار عليه، وقوله لهم: «**دَعُوه، أقِرُّوه**». ثم تقريبه له قائلاً: «**أُدْنُ**». حتى جلس بين يديه، بحيث كان في متناول يده، وهذا هو المجال العاطفي للجسد، ثم سرعة استجابة النبي ﷺ بالدعاء له بأكثر مما سأل، ووَضْعه ﷺ يده الشريفة على صدره.

ولكأني بهذا الشاب، وقد أفضى ﷺ بيده المباركة إلى صدره ليجد بردها في قلبه، وأنه عاش عمره كلَّه يتذَكَّر بنشوة تلك اللمسة النبوية، يجد أثرها على صدره وفي وجدانه، كأنما رفع ﷺ يده عنه الساعة.

لقد كانت تلك اللمسات العاطفية مفاتيح نبوية يفتح بها أغاليق القلوب، فهنيئاً لذلك الفتى، وقرة عين له قربه من رسول الله ﷺ، ومسحه على صدره، ودعاؤه له، وبورك سؤاله الذي أثمر له ذلك كله.

أما نحن، فهل نتعلم من ذلك أن الدعوة حبٌ، والتعليم حبٌ، والحياة حبٌ، وأننا لن نوصِّل رسالتنا للناس ما لم نَصِل إلى قلوبهم بالحبِّ؟

كما يلفت نظرك مراعاة النبي ﷺ في حواره مع الفتى البيئة التي هو منها، وأثرها في تكوينه النفسي، فالنبي ﷺ يخاطب شابّاً عربيّاً من أُمَّة عُرفت بحرارة الغَيْرَة، حتى إنهم ليدفنون البنت في طفولتها خشية العار، وما عُيِّر أحدهم بأشد من أن يُغمز منه عرضه، ولذا فإنه ﷺ لما جعله يتصوَّر ما سأل في أحد حرماته، استثار فيه لظى هذه الحَمِيَّة، وكأنَّا بهذا الشاب وهو بين يدي رسول الله ﷺ يستمع، وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً، وإنه ليجد مثل حرِّ النار تحت جلدة وجهه، وهو يتصور في ذهنه هذا التساؤل، ولذا جاء جوابه سريعاً: «لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك».

وكأني بك لو سألت هذا السؤال لمَن يعيشون في مجتمعات الإباحيَّة الجنسيَّة الذين انحرفت قيمهم، لأجابك بهدوء تام بعد أن يُرخي كتفيه: هي حرَّة، تلك علاقةٌ تخصُّها.

إن رسول الله ﷺ كان يراعي في تعليمه ودعوته بيئة المُتعلِّم وخلفيته التكوينية، وبذلك يصل من أقرب الطرق إلى عقله وقلبه.

وتلك براعة نبوية في مراعاة البيئة وحسن توظيفها في الدعوة والإقناع.

موعظة حسنة ومجادلة أحسن

في أواخر حياته ﷺ قام بعد صلاة الفجر فوعظ أصحابه موعظة مؤثرة، وصفها العرباض بن سارية فقال: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، فَقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[١].

إن هذه الموعظة كانت بليغة وكانت مؤثرة، استدرّت الدموعَ، وَأوجفت القلوبُ، وشعر الصحابة بحرارة العاطفة حتى أحسوا أنها لهفة مودع يوصيهم وقد أوشك أن يفارقهم، فاستزادوه من الوصاة لشدة التأثر بحاله ومقاله.

(١) «سنن ابن ماجه» (٤٢)، و«سنن أبي داود» (٤٦٠٧)، و«جامع الترمذي» (٢٦٧٦).

إن هذه الموعظة التي وصفها العرباض بأنها بليغة، واصفاً أَثَرها في عيونهم وقلوبهم، هي الموعظة الحسنة التي أُمر بها ﷺ في قول الله له: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

لقد قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، فهي دعوة إلى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه ولا لوطنه.

فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله، وليس له فضل يتحدث به، لا على الدعوة ولا على المدعوين، وأجره بعد ذلك على الله عَزَّوَجَلَّ وحده.

ثم ذكر الدعوة بالحكمة ولم يصف الحكمة، لأن لفظها يصفها ومعناها يجمعها.

ووصف الموعظة بالحسنة، لأن هناك موعظة خشنة تُنفر ولا تؤلف، وتُباعد ولا تقرب، وغالباً لا تتجاوز الموعظة حد الحُسن إلا إذا خالطها هوى، وشيء من مرادات النفس وحظوظها.

أما الموعظة الحسنة فهي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق في المشاعر بلطف، وتبتعد عن الزجر والتأنيب في غير موجب، ولا تفضح الأخطاء ولا تشهّر بها، ولا تشمت بمن قارفها.

والرفق في الموعظة وإحسانها كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير مما يأتي به الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وأما الجدال فوصفه بالتي هي أحسن: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهذا أبلغ مما لو وصفه بالحسن، وكأنه يقول: لا تجادلهم بطريقة حسنة إذا كنت تجد طريقة أحسن منها، واجعل مجادلتك بأحسن ما تستطيع من إحسان، لأن المجادل هو الأحوج إلى التلطّف مع مَن يجادِله حتى لا يستفزّه، ولا يدفعه إلى المكابرة والعناد.

والجدال بالتي هي أحسن هو الذي يدار بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له ولا تقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أن هدفه ليس الغلبة وتحقيق الانتصار، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة.

وكثيراً ما تختلط على النفس قيمة الرأي الذي تدافع عنه وقيمتها عند الناس، وترى أن رأيها جزءٌ من كرامتها، فلا تقبل أن يُطاح به باستخفاف، ولذا فمن المهم التركيز على جوانب الصواب عنده، والثناء عليها.

والجدال بالتي هي أحسن هو الذي يطامن هذه الكبرياء الحسَّاسة، ويُشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا بيان الحقيقة ذاتها، والاهتداء إليها، ليس في سبيل ذاته أو نصرة رأيه، ولكنْ في سبيل الله وحده.

ومن المهم ألا يلج الداعية الحوار مع أي فريق إلا وهو متسلح بالبراهين والحجج وأنوار العلم، مدرك لطبيعة شبهات كل فريق وطريقة احتوائها، والاجتهاد في اجتذاب المحاور، واستنقاذه من متاهة الحيرة إلى طمأنينة الهداية، وأن يكون حواره حوارَ المستنقذِ وليس المتغلِّب، حوار مَن يريد أن يظفر بهداية، لا أن يحقق انتصاراً وغلبة، وأن يَشعُرَ من تحاور بالرحمة وحب الخير له، وليس الانتصار عليه.

إن المدعوين أنواع، ولكلٍّ نوع ما يناسبه في دعوته، فلا يصح أن أدعو الملحد كما أدعو النصراني المؤمن بنصرانيته، فإذا كان حوارك مع مَنْ بينك وبينه أرضية مشتركة، فإنك تنطلق منها ثم تتدرج معه فيما يخالفك فيه.

الدعوة بالسيرة

كان ثمامة بن أثال سيداً زعيماً قَبَليّاً في قبيلة بني حنيفة، وكان يهدد النبي ﷺ ويتوعده، ثم سار متوجهاً إلى مكة، فوقع أسيراً في يد سريّة من سرايا النبي ﷺ، فجاؤوا به إلى المدينة، فلم يأمر النبي ﷺ بحبسه في زنزانة مغلقة، وإنما رُبط إلى سارية من سواري المسجد؛ لتكون أمام عينيه الواجهة الحياتية والعبادية لرسول الله ﷺ والمؤمنين معه.

فأتى إليه النبي ﷺ في اليوم الأول وقال: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**». إن هذه الكلمة النبوية أبعد ما تكون عن التبكيت أو الإهانة أو التهديد، لقد كان متوقَّعاً أن يسمع ثُمامة ما عند رسول الله ﷺ، وإذا برسول الله ﷺ يسأله عما عنده، فأجاب ثُمامة بمنطق السادة، ووثوق الأشراف، قائلاً: «عندي خير يا محمد». ثم طرح الاحتمالات المتوقَّعة، فقال: «إن تقتلني، تقتل ذا دم -أي: ذا دم خطير- وإن تُنعِم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت». فتركه النبي ﷺ ولم يحدد له أيّاً من هذه الخيارات، لتشتغل حواسُّه ومداركه في مراقبة النبي ﷺ ومَن حوله، لعله يستشفُّ مصيره الذي سينتهي إليه.

وكان ثُمامة وهو مربوط إلى ساريته لا يُعامل بما يخدش كرامته، بل كان طعامه يُحمل إليه من بيوت رسول الله ﷺ، وكأنما كان يواسيه في طعامه وشرابه.

ومضى يومان وثمامة مربوط إلى ساريته، يرى تعامل رسول الله ﷺ بعظمته الأخلاقية، وكيف يعيش مع المسلمين، وهو إمامهم كأحدهم، يسعهم جميعاً بخلقه وإقبال نفسه، ويرى صفوف المسلمين، وهم يصلون خلف رسول الله ﷺ في منظر تعبدي عظيم، ما رأت عيناه مثله، وسمع ثُمامة آيات القرآن يرتِّلها رسول الله ﷺ في صلواته.. فكانت كل المشاهد أمام عينيه رسائل نافذة إلى قلبه.

وفي اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**»! وهكذا حُلَّ رباطه، وأُطلق سراحه بعفو نبوي غير مشروط.. بعد أن قضى ثلاثة أيام في مسجد رسول الله ﷺ امتلأ فيها سمعه ومرآه بمشاهد النبوة وآيات القرآن، ولذا خرج ثُمامة من المسجد بقلب غير القلب الذي دخل به، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل فيه، ثم دخل المسجد، فوقف بين يدي رسول الله ﷺ قائلاً: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليَّ»[1].

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٧٣٦١)، و«صحيح البخاري» (٤٦٢، ٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤)، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ٨٧)، و«فتح الباري» (٨/ ٨٧)، و«الإصابة» (١/ ٤١٠)، (٣/ ٥٨١).

هنا نتساءل: ما الذي جذب ثمامة إلى الإسـلام؟ مع أنّ النبي ﷺ لم يدعه دعوةً مباشرة، ولم يقايضه على إسلامه بثمن ولو كان إطلاق سراحه.

ما الذي جعل قلبه يُشرَب حبَّ النبي ﷺ حتى لم يعد وجهٌ على وجه الأرض أحبَّ إليه من وجهه ﷺ؟

إنّها هي سيرة النبي ﷺ التي راقبها خلال ثلاثة أيام، يَسمعُ قراءته الخاشعة، ويرى صلاته المتبتّلة، ويشاهد أصحابه يحفون به وهو بينهم كواحدٍ منهم، ليس له سطوة الملوك ولا جبروتهم، ولكن سكينة الرسل ورحمتهم وشفقتهم، وكان كلُّ مشهدٍ يقدم دليلاً على نبوته، ويكتب سطراً في محبته.

ومثل ذلك ما جرى لعديّ بن حاتم الطائي، حين قدم على النبي ﷺ، فانطلق النبي ﷺ إلى بيته، فاستوقفته امرأة في الطريق، فوقف لها، ووقف عديّ يرقب المشهد، قال: فأشفقتُ عليه من طول قيامه معها، وقلتُ في نفسي: والله ما هذا بملك. ووقع حبُّه في قلبي. ثم أدخله بيته، فدخل بيتاً ليس فيه إلا وسادةٌ واحدة، ألقاها النبي ﷺ إلى عديّ، وأجلسه عليها، وجلس هو على الأرض[١].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٨٠)، و«الأحاديث الطوال» للطبراني (١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٤٣).

وعديّ هو الذي وفد على قيصر في ملكه، ورأى أُبَّهة الملوك وصلفهم وجبروتهم، فعلم أنّ حال النبي ﷺ ليس بحال ملك، ولكن حال نبيٍّ مرسل.

لقد كانت رؤية النبي ﷺ ومعرفة حاله مفتاح القلوب، ودليل النبوة.

ولما قدم النبي ﷺ إلى المدينة جاءه عبد الله بن سلام، وكان من أحبار يهود، قال: «فلما رأيتُ وجهه واستبنته علمتُ أن وجهه ليس بوجه كذّاب»(١). فكانت رؤية وجهه ﷺ تُفيض الطمأنينة، وتدل على المصداقية.

ولذا فإن من أنجح وسائل الدعوة عرض سيرة النبي ﷺ والتعريف به؛ فسيرته جاذبة، وهي إحدى دلائل نبوته، فمن عرَف سيرته علم أنها لا يمكن أن تكون إلا سيرة نبيٍّ يتلقى الوحي من الله.

ومن المهم عند عرض سيرته، ألّا نُعرِّف الناس بالسيرة التاريخية من المولد إلى الوفاة، ولكن المهم عرض شمائله وخُلقه العظيم، وعرض دلائل نبوته العقلية، والتي هي برهان نبوته، وعرض علاقته بالأنبياء قبله، وخاصة علاقته بإبراهيم وموسى وعيسى، وقد كتبت في السيرة النبوية كتاباً طُبع بالعربية بعنوان: «السيرة اليسيرة» وتُرجم بعنوان: «آخر الأنبياء» رَكّزت فيه على السيرة المختصرة، على ذكر دلائل النبوة العقلية، وعلى الشمائل النبوية، لأن ذلك أهم ما ينبغي أن يتعرف عليه قارئ السيرة.

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٣٢٥١)، و«سنن الترمذي» (٢٤٨٥).

وهناك كتب مفيدة في ذلك، منها: «مع المصطفى» للشيخ سلمان العودة، و«إنسانية محمد ﷺ» لخالد محمد خالد، و«أحوال الرسول ﷺ» لمحمد المنجد، و«اليوم النبوي» و«الحياة النبوية» لعبد الوهاب الطريري، و«براهين النبوة» لسامي العامري، و«براهين الرسالة» لأحمد بن غانم الأسدي، و«عقلنة دلائل النبوة» للشريف حاتم العوني، وغيرها كثير.

البدء من نقطة الاتفاق

هكذا حاور النبي ﷺ حُصَين بن عبيد والد عمران بن حصين، حيث بدأ معه الحوار بالاستدراج المنطقي من غير مصادمة، فقال: «**يَا حُصَيْنُ، كَمْ إِلَهاً تَعْبُدُ الْيَوْمَ؟**».

قال: «سَبْعَةً فِي الْأَرْضِ، وَإِلَهاً فِي السَّمَاءِ».

قال: «**فَإِذَا أصابَكَ الضُّرُّ مَنْ تَدْعُو؟**».

قال: «الَّذِي فِي السَّمَاءِ».

قال: «**فَإِذَا هَلَكَ الْمَالُ مَنْ تَدْعُو؟**».

قال: «الَّذِي فِي السَّمَاءِ».

قال: «**فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ، وَتُشْرِكُهُمْ مَعَهُ؟!**»(١).

وهذا تحريك للعقل، وانطلاق من نقطة الاتفاق، فإذا كان الذي في السماء هو الذي تدعوه إذا مسّك الضّرّ فيكشفه وإذا هلك المال فيُخلفه، فكيف تتوجّه بالعبادة إلى غيره؟!.

(١) «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٢٧٧)، وأصل الحديث في «سنن الترمذي» (٣٤٨٣).

إن المدعوين أنواع وآراء شتى، ولكلٍّ ما يناسبه في دعوته، فالنصراني المؤمن بنصرانيته قد قطع جزءاً من الطريق، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر وبالرسل والرسالات، فهناك مساحة اتفاق وأرضية مشتركة، فيكون الحوار معه في تصحيح الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ بتوحيده، والبرهنة على نبوة محمد ﷺ، وأنه رسول الله إلينا كما أُرسل الأنبياء قبله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ومن هنا كانت وصية النبي ﷺ لمعاذ حين أرسله إلى اليمن، فقال: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى**»[(١)]، فمن كان يؤمن بوجود الله عَزَّوَجَلَّ والمصير إليه فإن البداءة معه بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه، ثم ينتقل إلى ما بعدها بعد الاتفاق عليها.

وأما الملحد المتنكر لوجود الله عَزَّوَجَلَّ فالكلام معه في وجود الله عَزَّوَجَلَّ، وإيجاده مخلوقاته، وتدبيره لملكوته، وحكمته في خلقه وأمره، ومنطلقات الحوار معه تبدأ من الأسئلة الوجودية الحرجة، والتي تلح على كل عقل وتتحرك في كل فطرة: من أين أتينا بغير اختيارنا؟ وإلى أين سنذهب بغير اختيارنا؟ وما هي مهمتنا وغايتنا؟ وهل يتصور أن يكون كل هذا الكون قد وُجد عبثاً؟! وأن الإنسان سيُترَك بلا مسؤولية ومساءلة؟ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٩).

والبداءة من نقطة الاتفاق هي الهدي القرآني، يقول الله عَزَّوَجَلَّ آمراً نبيه أن يخاطب المشركين بهذا المنطق قائلا: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، لأن المسلمين والمشركين متفقون على أن الرزاق هو الله، والمشركون لا يخالفون في أن الرزق من الله، وإنّما يخالفون في شيء آخر، وهو أن العبادة ليست لله وحده بل لله شركاء يُعبدون معه، فبدأت الآية بالمتفق عليه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]. فهذا متفق عليه، بقي عندنا ما نختلف فيه، وهو هل الرّبّ الذي يرزق مِن السماوات والأرض هو المستحق للعبادة وحده؟ أَمْ ثَمّة شركاء يُعبدون مع أنهم لا يَرْزقون؟ تعالوا نتحاور إذن: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

ولـمّا كان الإيمان بوجود الله وخلقه وتدبيره قضية متفقاً عليها بين النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ والمشركين فإنه يؤكدها ويكررها، ثم ينطلق منها: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

الهداية بالقرآن

ذهب جبير بن مطعم إلى المدينة وهو مشرك ليفاوض النبي ﷺ في شأن بعض أسرى بدر، فدخل المسجد والنبي ﷺ يصلي بالناس صلاة المغرب، فسمع النبي ﷺ يقرأ سورة الطور، قال: «فلما سمعته يقرأ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، كاد قلبي أن يطير»[١]. لقد كان وقع هذه الآيات مزلزلًا على قلب رجل لم يُسلم، ولكنه فهم الخطاب وشعر بقوة أخذه للنفس، وكانت البذرة التي نبتت في قلبه، فأسلم حين أسلم وهو متهيئ للقبول.

وعندما كان النبي ﷺ يعرض دعوته كان يقرأ عليهم القرآن، فتأخذهم معانيه وتغمرهم هدايته، امتثالاً لأمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وعندما ذهب مصعب بن عمير إلى المدينة كان عتاده وعُدَّته القرآن، فبِهِ كان يدعو، وبه فُتحت المدينة للإسلام.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٥٤)، و«سنن أبي داود» (٨١١).

ومعاني القرآن الجامعة فيها مخاطبة للعقل اليقِظ والقلب الحي الحساس، فهي خطاب عقلي وعاطفي، وفيها الحكمة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وأمَر الله نبيَّه أن يدعو بتلاوة القرآن وبيانه للناس: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]. وهذا توجيه للدعاة أن تكون دعوتهم بالقرآن، فهو نور وهداية وهو المؤثر الأقوى على نفوس الناس.

والدعوة بالقرآن بتلاوته وعرض مضامينه وتقريبها للناس، وتنويع عرضه لكل فئة بما يناسبها حتى تفهم خطاب الله وتعيه وتتأثر به.

وكثير ممن أسلموا كان الجاذب لهم آية أثرت في نفوسهم، وأيقظت شعورهم ومشاعرهم.

ومن المهم عند الدعوة بالقرآن اختيار الآيات التي كانت تخاطب غير المسلمين، كالآيات المكية التي تتحدث عن عظمة الله في الخلق والإيجاد والإنعام، واستحقاقه للعبادة وحده، والحكمة من الخلق، ومهمة الإنسان في الحياة، ومصيره بعدها.

وعندما زرت بعض المراكز الإسلامية رأيتهم يوزعون نسخاً من ترجمة معاني القرآن على المسلم الجديد، أو من يسأل عن الإسلام، ورأيت أن الأولى مِن ذلك إعطاءهم آياتٍ وسوراً مختارة تناسب احتياجهم، بدل دخولهم إلى معاني القرآن الواسعة التي لا يستوعبونها.

إن الرسول ﷺ لم يرسل لهرقل في رسالة الدعوة إلا آية واحدة، فلم يرسل له مصحفاً ولا سورة، وإنما آية جامعة تخاطب أهل الكتاب بالدعوة لتوحيد الله والاجتماع على عبادته وحده.

ولِذا قمت بإعداد رسالة قصيرة بعنوان: «تعرّف على القرآن»(١) فوضعت فيها مقدمة تُعرّف بالقرآن ونزوله وعظمته، ثم ذكرت سوراً من القرآن هي: «الفاتحة»، و«مريم»، و«ق»، و«الإخلاص»، مع تعليق يسير مختصر يوضح معانيها، ثم ذكرت آيات جوامع في الأخلاق والمعاملة، فجاءت الرسالة مختصرة تُقرأ في جلسة واحدة، وتصلح أن تكون مدخلاً لقراءة القرآن في مرحلة لاحقة، بعد أن تكون القضايا الكبرى قد اتضحت، والإجابة عن الأسئلة الوجودية الحرجة قد اكتملت.

---

(١) يمكن الوصول إلى الرسالة من هذا المربع:

الدعوة بالحكمة

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله أوصني»، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»، فكرر مراراً، فقال ﷺ: «**لَا تَغْضَبْ**»[(١)].

وجاءه رجل فقال: «قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك»، قال ﷺ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثمّ اسْتَقِمْ**»[(٢)].

وجاءه رجل فقال: «يا رسول الله أي الإسلام خير؟» قال ﷺ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»[(٣)].

وجاءه رجل فقال: «يا رسول الله أي العمل أفضل؟» قال ﷺ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**»، قال: «ثم أي؟» قال: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١١٦).
(٢) «صحيح مسلم» (٣٨).
(٣) «صحيح البخاري» (١٢)، و«صحيح مسلم» (٣٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٦)، و«صحيح مسلم» (٨٣).

وهكذا تنوعت إجابات النبي ﷺ مع تقارب أسئلة السائلين، وتلمس العلماء الحكمة في هذا التنوع في الجواب، فرأوا أن ذلك لتنوع أحوال السائلين، فيجيب رسول الله ﷺ كل سائل بما هو أحوج إليه وأليق بحاله[١].

وهذه هي الحكمة، وهي ما أُمِر به النبي ﷺ في قول الله له: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

والدعوة بالحكمة تقتضي النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقَدْر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم، ولا يشق بتكاليفه قبل استعداد النفوس لها، واختيار الطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الغيرة والحماس فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي ما سواه[٢].

والحكمة مطلوبة في كل عمل دعوي، وفي كل مشروع إصلاحي، سواء أكان ذلك عملاً فردياً أم مؤسسياً، قصير المدى أو طويل المدى، لكن الحكمة ليست تعليمات محددة بلوائح جامدة أو قوانين صارمة، يمكن ذكرها ليلتزم بها الداعية، بل تتّضح من تعريفات الحكمة والعناصر المكونة لها أنها ميدان رحب من الاجتهادات الدعوية في الأقوال والأعمال والمواقف، والتي تختلف باختلاف الظروف والبيئات والأزمـان، الهدف منها: هو الإصابة في القول والعمل،

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٢١).
(٢) يُنظر: «في ظلال القرآن» لسيد قطب (٢٠٢٢).

ووضع الشيء في موضعه الذي يستحقه، فما قد يكون حكمة في زمن من الأزمان أو في مكان من الأمكنة قد لا يكون كذلك في زمان آخر أو مكان آخر، والداعية الحكيم، هو الذي يستطيع بحكمته تقدير الموقف المناسب لكل حالة بحسبها[١].

ومن جوانب الحكمة الدعوية التي يحسن الإشارة إليها في هذا السياق:

١ـ الداعية الحكيم يحسن التعامل مع أنواع المدعوين، وطبائعهم، وخلفياتهم الاجتماعية والثقافية، ويتقن امتلاك قلوبهم من خلال المداخل النفسية والتربوية الملائمة لهم، ويعطي كل ذي حق حقه من المعاملة والصلة.

وسيرة النبي ﷺ عامرة بالأمثلة العملية الدالة على ذلك، فهو يتعامل مع جفاة الأعراب، ومع دهاة العرب، ومع من في خلقه شيء من الشدة، ومع رؤوس المشركين، ومع أنواع المنافقين... وهكذا في أمثلة كثيرة جداً تؤكد بمجموعها حكمة النبي ﷺ في التعامل مع الشخصيات المتباينة في الظروف والأوقات المختلفة.

٢ـ الداعية الحكيم يراعي أحوال المكلفين، ويستحضر تفاوت أفهام الناس وقدراتهم في فعل الطاعات، ويسدد ويقارب بحسب الإمكان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا، وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**»[٢].

---

(١) «روائع من أدب الدعوة» لأبي الحسن الندوي (١١ ـ ١٨).

(٢) «مسند أحمد» (١٠٦٧٧)، و«صحيح البخاري» (٦٤٦٣).

٣ـ الحكمة الدعوية لا تكتمل إلا بمعرفة مقاصد الشريعة وعللها وغاياتها، فالمقاصد كما قال الشاطبي: «أرواح الأعمال»[(١)]. وليس الحكيم الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الخيرَين، وشر الشّرَّين، فيُحصِّل المصلحة الكبرى ولو فاتت المصلحة الصغرى، ويدفع الضرر الأكبر ولو ارتكب ضرراً أقل منه. والشريعة إنما جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها[(٢)].

(١) «الموافقات» للشاطبي (٢/ ٣٤٤).
(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ٥١٢)، (٢٠/ ٥٤).

الدعوة انفعال وتفاعل

يجلّيها لنا مشهد انفعال النبي ﷺ في خطبته، فقد وُصف ﷺ بأنه كان إذا خطب علا صوتُه، واحمرتْ عيناه، كأنه منذر جيش يقول: صبّحكم ومسّاكم.

وهذا الانفعال سببه قوة تشبّع النبي ﷺ بما يدعو إليه، فكان ﷺ يقدم دعوته ممزوجة بعاطفته، وهي عاطفة الشفقة على البشرية، عاطفة المستنقِذِ لها مِنَ الهلاك، فيفرح للناس إذا رأى هدايتهم، ويحزن ويأسف إذا رآهم يتخبطون في متاهة الضلال، ويقتحمون دركات النار وهو يدعوهم إلى صراط الله المستقيم، حتى إن ربه الذي أرسله عاتبه على شدة أسفه فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. هل ستُهلك نفسَك أسفاً عليهم إذا لم يؤمنوا؟.

إنها عاطفة الحرص على هداية الناس، و استنقاذ البشرية، وهذا ما ينبغي أن يظهر لهذا المدعو، فيشعر أن باعثك للدعوة محبته والشفقة عليه،

وأنك تَشعُر بالأخوّة الإنسانية بينك وبينه، ولذلك تريد له الهداية، وأن يمشي معك على الصراط المستقيم، وأن يسلك الطريق الصحيح الذي يوصله إلى الله، وأن يشعر بلهفة الـمُستنقِذ وليس بسطوة الآمِر، وأن دافعك إلى دعوته حب وشفقة، وليس استتباعاً، فإذا فتح الله على أحدهم على يديك فأسلم فينبغي أن يشعر بفرحك، وأن يُشعره المسلمون معك بفرحهم به، وبأنه صار واحداً من أسرة المسلمين، وأن أهل الإسلام عائلة كبيرة، وصار الآن واحداً منهم، وينبغي أن يشعر بالحرص عليه والتواصل معه، حتى توجد عنده أيضا هذه العاطفة المتجاوبة مع عاطفتك له.

وكذا كل من يفتح الله له على يديك باباً من أبواب الهداية والصلاح، ينبغي أن يشعر بابتهاجك وتفاعلك وتعاونك.

ومثلما كان ﷺ يحزن ويأسف لإعراض المعرضين كان يفرح ويبتهج لهداية المهتدين، فقد زار ﷺ فتى يهوديّاً مريضاً كان يخدمه فوجده على مشارف الموت، فعرض عليه الإسلام، فأسلم الفتى، ثم مات، فخرج النبي ﷺ فرحاً يقول: «**الْحَمْدُ لله الَّذِى أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»[1].

إن هذا الفتى أسلم ثم مات، فلن يستفيد منه النبي ﷺ بشيء، ولن يستفيد منه المسلمون شيئاً، لكن النبي ﷺ فرح بهدايته، واستنقاذه من مصير الضلالة.

(١) «صحيح البخاري» (١٣٥٦)، و«سنن أبي داود» (٣٠٩٥).

إنّ الدعوة ربح وغنيمة كلها، وأعظم غنائمها أن يهدي الله بك رجلاً واحداً، حتى وإن كنت تظنّ أنه لن يفيد غيره، فإنقاذه بحد ذاته نجاة له ومكسب لك، وهو إنجاز يحقّ لك أن تفرح به، وتبتهج وتحمد الله على فضله عليك حيث أجرى هدايته على يديك.

والخُلق الحسن دعوة

أوصى النبي ﷺ أبا ذر بالوصايا الثلاث، وهي جماع التزكية فقال: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1]. ولاحِظ قولَه: «**وَخَالِقِ النَّاسَ**» فإن الخلق الحسن مبذول للناس كل الناس، قريبهم وبعيدهم، مسلمهم وكافرهم، فالناس كلهم لهم حظ من حسن خلق المسلم، وكان ﷺ هو القدوة والمثال في حسن الخلق، فوصفه ربه العليم به بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً»[2].

ولا يُعرف أحد ظهرت سيرته ظهور سيرة النبي ﷺ فأضاءت منها الحياة كلها، ولا أحدٌ أثَّر في البشرية كتأثيره، ولا قريباً من تأثيره، وكان مما هيأ الله به ذلك ما جبله عليه من الخلق العظيم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) «جامع الترمذي» (١٩٨٧) وقال: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) «مسند أحمد» (١٣٢٠٩).

وحسن الخلق هو العبادة التي نتعبد لله عَزَّوَجَلَّ بها حين نُعامل الناسَ، فليس شيء أثقل في ميزان العبد من حسن الخلق، وهي اللغة التي لا تحتاج إلى ترجمان، والناس يُدركون الفرق بين الأخلاق أكثر من إدراكهم للفرق بين الأفكار، فليس طريق أيسر وأفضل من طريق الأخلاق، والداعية يختصر بحسن أخلاقه طريقا طويلاً إلى قلوب مَن حوله وعقولهم أسرع مما يقطعه بأفكاره وحواراته، وكم كُسِبتْ قلوب أناس بحسن الخلق!، وكمْ تعرف أُناسٌ إلى الإسلام بأخلاق أهله، ومن أمثال الأمم: «لا تُكثر حديثك إلي فإن ما تقوله أفعالك يصم أذني».

وأقوى التأثير هو التأثير بالقدوة، فإن أثرها يسري بقوة واندفاع، ها هو رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يأتيه وفد من قبيلة مُضَر عليهم الجهد والفاقة، فيتغير وجه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِوَسَلَّمَ شفقة عليهم، ثم يخطب في الناس ويحثهم على الصدقة والمواساة، فكأن الناس تباطؤوا، ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ينتظر حتى كرِب لمعاناة هؤلاء المجهولين، فجاء رجل من الأنصار وبيده صُرّة من دراهم قد عجزت يداه أن تضمها، فألقاها بين يدي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، فتدافع الناس بعده، فإذا بين يدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِوَسَلَّمَ كومان من طعام وثياب، فجعل وجه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يتهلل كأنه مُذْهبة[1]، ثم قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: **«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً،**

---

(١) مُذهبة: قال القاضي عياض أراد فضة مذهبةُ، كما قيل: «كأنها فضةُ قد مَسّهَا ذهب»، يعني لحسن وجهه ونوره وإشراق ماء السرور فيه. يُنظر: «إكمال الـمُعلم» للقاضي عياض (٣/ ٥٤٠).

كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1].

إن هذا الرجل الذي جاء بالصُّرة، وصار كل من أنفق بعده في ميزان أجره لم يأمر أحداً بذلك، ولكنه بادر إلى فعل حسن فاقتدى الناس به.

وهكذا عندما نقدم القدوة الحسنة، فإننا نقدم الجاذبية المبهرة لهذا الدين، على أن قدوة المسلم هي دين يدين لله به، وليست تظاهراً ولا مراءاة لأحد، ولكنه الوجه الحقيقي لتدينه.

ومن المهم التركيز على الدعوة العملية من خلال التعامل الحسن، سواء التعامل الفردي أو التعامل الجماعي، مثل إنشاء مشاريع تعالج مشاكل المجتمع، كمشكلة الفقر، ومشكلة المخدرات، ومشكلة الجريمة، ومشكلة الجهل، ونحو ذلك، فالمشاركة في إيجاد حلول لها هو وجه من وجوهِ الدعوة، ووجوهِ الإحسان التي نؤجر عليها، سواءٌ أثّرت في استجابتهم للدين أم لم تؤثر، فهو عمل نتقرب إلى الله به، وهو في الوقت ذاته يعرِّف بنا وبديننا ورسالتنا.

❁❁❁

(١) «صحيح مسلم» (١٠١٧).

تصحيح التشويه واحتواء الاستفزاز

هناك تشويه لحق بصورة الإسلام في كثير من البلاد، والذي كان جزء منه من صناعة جماعات الغلوّ الدموية، وجزء آخر من صناعة الإعلام المعادي، والذي يقدم هذه المشاهد على أنها الإسلام والمسلمون، ولذلك نحتاج إلى بيان الجانب الرائع في التعامل مع المخالف، وبيان حقوقه وجوانب البر والإحسان في التعامل معه، ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وأن هذه الحقوق شُرِعَتْ قبل أن توجد المواثيق الدولية والمنظمات العالمية.

وكذلك مواجهة حملات التشويه بطريقة إيجابية تستغل الحدث وتُفعِّله ولا تنفعل به، فإذا جاءت حملة سخرية بالنبي ﷺ تواجَه بحملة بالتعريف بالنبي ﷺ وبيان عظمته، وإذا وُجدت حملة استخفاف بالقرآن تواجَه بترجمة سور وآيات من القرآن تبين عظمته، ورعايته للحقوق، وتعظيمه للأنبياء، وتعزيزه للقيم الأخلاقيّة ونحو ذلك.

كما أن هناك استفزازاً قد نتعرض له من بعض المتعصبين أو المتطرفين من أصحاب التوجهات المخالفة، وهو موقف ينبغي أن لا يحملنا على ردة الفعل الانفعالية التي تفوت كثيراً من فرص الدعوة، وإن من الحكمة احتواء هذا الخلاف في الإعراض والصفح واحتواء المخالف، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]، فأمر بالعفو والصفح لاحتواء الخلاف وعدم تصعيده، لأن جمهور أتباعهم هم مساحة الدعوة، ولذا ينبغي أن لا يُجَنَّدوا في مواجهة مع الإسلام.

التعريف بمعالم الإسلام

من المهم عند التعريف بالإسلام التركيز على أصول الإسلام التي تميزه، وأن يكون عرضنا للإسلام عرض تعريف بأصوله، والتي تقوم على تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وأعظم تعظيم لله توحيده وإفراده عَزَّوَجَلَّ بالعبادة والتوجّه والقصد، وإظهار ما يحمله الإسلام من قيم تفتقر إليها القيم الغربية، التي حوّلت الحياة إلى ورشة عمل كبيرة، تُطحن فيها الأعمار في غيبوبة عن حكمة الخلق ومصير الحياة، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وأهم شيء في ذلك الإشباع الروحي والطمأنينة القلبية التي يجدها المسلم في إسلامه، فالقرآن دليل السير في هذه الحياة، يحدد للإنسان موقعه، ويرسم طريقه، ويوضح بدايته ونهايته، ويعطي قيمة لوجوده، ويخرجه من متاهة النظرة العبثية للحياة إلى حياة ثمينة وُجد الإنسان فيها لـمُهِمّة ولغاية شريفة؛ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وينسجم فيها الإنسان مع كل هذا الكون الهائل المحيط به بالعبودية لله والتوجّه إليه، واليقين بعظمة الله، واطلاعه وقربه ومدده لعباده،

كما قال ﷺ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١). فيا لله! كيف سيعيش مَنْ يوقنُ أنه بنظر الله، وكيف ستكون حياته مطمئنة مأنوسة! إنه سيضع الحياة وما فيها في حجمها الطبيعي، فيعيش فيها ونظره ممتد إلى الحياة الخالدة التي سينتقل إليها، وسيعبر شدائدها بثقة ويقين، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وكذلك عرض محاسن الإسلام، وبخاصّة في الجانب الأخلاقي، وجانب التعامل والإحسان.

وعندما التقيت بسيدة مسؤولة عن الديانات في وزارة الداخلية في كولومبيا تحدثت معها عن هذا الجانب، وقلتُ: إنه لا يوجد كتاب ولا دستور تحدّث عن حقوق الأسير قبل القرآن، فالقرآن هو أول كتاب تكلم عن حقوق الأسير، فضلاً عن حديثه عن حق اليتيم، والفقير، والغارم، لكن الأسير الذي الأصل فيه أنه جاء محارباً، فعندما يؤسر ويكون في حال ضعف فإنه يصبح محل الإحسان، وكان هذا ممّا أبهرها جدّاً.

ومحاسن الإسلام ووضوحه ونقاؤه العقدي تجذب الناس إليه، مع تجنب المواجهة مع الديانات الموجودة في كل بلد، وتجنب المناظرات مع النصارى أو البوذيين، فإن هذه المناظرات تؤجج الصراع والمنافسة،

(١) «صحيح البخاري» (٥٠)، و«صحيح مسلم» (٨).

وقد تقضي على كثير من الفرص المتاحة، ولكن المطلوب هو حسن التواصل مع رجالات الديانات، وتعريفهم بالإسلام من خلال التعامل الحسن معهم، من غير تحرُّف للمواجهة ما أمكن.

وتجنب الهجوم المباشر على أديانهم ومعتقداتهم، فإن ردة فعل الهجوم هي التحفز للهجوم المضاد.

ولكن نجعل قضيتنا هي عرض الإسلام، والتعريف به، والدلالة عليه، وإذا أَضاءَتَ النور تبدّد الظلام، وإذا أَظهرتَ الحق انكشف الباطل.

وعند عرض الإسلام للتعريف به ينبغي أن يُعرض بطريقة لا يستشعر منها هذا المدعو محاولة احتوائه أو التأثير عليه، وإنما هو عرضٌ لتعاليم الدين ثمّ تحميله هو مسؤولية الاختيار واتّخاذ القرار، فالعقل والفطرة والعالم مِن حوله شاهدٌ لحقيقة واحدة، وهي صحةُ دين الإسلام وبطلانُ ما عداه.

الثمرة أكبر من البذرة

إن العمل الفردي لا يُستهان به ولا بتأثيره، فربما كان جهد داعية فردٍ يباركه الله ويحقق على يديه فتوحاً عظيمة، فمصعب بن عمير كان داعيةً فرداً ذهب إلى المدينة، فكان سببا في إسلام كثير من الأنصار.

وأبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في أول الدعوة والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في مكة والمسلمون مستخفون، فلما أسلم أمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يغادر مكة، وقال له: «**ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي**». لأنه لو جلس في مكة صارت حمايته عبئاً على المسلمين، فذهب أبو ذر إلى قبيلته، لكنه لم يجلس في حال انتظار، ولكن كان في حال دعوة، حتى أسلم نصف قبيلته غفار(١).

ولِذا فلا تستهِن بجُهدك، ولا تستصغر دورك، فقد تكون داعيةً في بلدٍ فيُنقذ الله بك أمّة هالكةً، ويُحيي بك أرضاً مَواتاً.

---

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (٣٨٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٣).

وربما اهتدى على يدك من سيعمل أكثر مما عملت، وينجز أفضل مما أنجزت، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع، وسيكون عملُه هذا في صحيفتك، وعندما تدعو في مجتمع غير مسلم فربما أسلم أناس وكانوا أهل صدق في إسلامهم وعملهم، وعملوا شيئا لا تُطيق أنت عمله الآن، وكل ذلك امتدادٌ لعملك.

ومن أمثلة ذلك أن الطُّفَيل بن عمرو الدوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسلم في أول البعثة، ثم لحق بقبيلته دَوس ينشر الإسلام فيها، فانتشر الإسلام في قبيلة دَوس، وكان ممن أسلم على يديه ثم هاجر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (راوية الإسلام)، والذي حفظ الله به سنةَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وإذا نظرت إلى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسند أحمد وجدته **(٣٨٦٧)** حديثاً، في حين لا تجد فيه من رواية الطُّفيل بن عمرو الدوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديثاً واحداً، لكن كل مرويات أبي هريرة هي في صحيفة الطفيل بن عمرو الدوسي.

رابعاً

الداعية المغترب

المهاجر بدعوته

هل تخيلت شعورك ومشاعرك وأنت تحزم حقائبك لرحلة دعوية؟ هل تفكرت في حالك وأنت تحلق في آفاق الله الواسعة؟ وما تحمله ليس ما وضعته في حقائبك، ولكن ما تحمله في قلبك، هل شعرت وأنت سابح في أفق السماء أو ضارب في فجاج الأرض أنك مهاجر في ذات الله عَزَّوَجَلَّ؟ وأنَّك تسعى في مهمة استنقاذ وإحياء، لعل الله ينقذ بك أمة هالكة؟.

إنّ مَن اغترب بهذه النية فتح الله له أبواب فضله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ [النساء: ١٠٠]، ولا يمكن أن يعِد اللهُ المهاجرَ بالسَّعة ثمَّ ينقله إلى ضيقٍ، وإنما سينقلك إلى السَّعة والفضل وجزيل الثواب، فإنِ اختلَّ الأمرُ عليك فراجِعْ قصدك، وصحِّح نيّتك.

إننا في هجرتنا نسير خلف أنبياء الله ورسله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، فنبي الله إبراهيمُ هاجر، ولوطٌ هاجر، ويعقوبُ هاجر، ويوسفُ هاجر، وموسى هاجر، ثمَّ جاء نبينا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليكون أشرف مهاجرٍ، ونحن في هذا العصر نسير على إثرهم.

فالهجرة للدَّعوة سبقنا إليها أنبياء الله ورسله، وسبقنا إليها صحابة نبيّنا ﷺ، ومنهم مهاجرو الحبشة، ومصعب بن عمير، ثم المهاجرون إلى المدينة، ونحن الآن في هذه الآفاق يستشعر كلٌّ منا أنَّه مرسل من نبيّه محمَّدٍ ﷺ كما أُرسلوا، ومهاجر كما هاجروا.

لقد كان النَّبي ﷺ يبثّ في رُوع الصَّحابة[1] أنَّ كل واحدٍ منهم هو رسولٌ مبعوث برسالة الله إلى البشرية، فقال لهم: «**إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ**»[2]. فخاطبهم على أنهم مبعوثون، وأسند البعث إليهم مباشرةً، لأنهم مبعوثون بما بُعث به ﷺ، ولِذا قال رِبّعيّ بن عامر لقائد الفرس لما سأله: «ما جاء بكم؟» فأجابه: «إن الله ابتعثنا، لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»[3]. فلاحِظ قول النبي ﷺ: «**إنّما بُعثتُم**». وقول رِبعيّ: «إن الله ابتعثنا».

وإن التأهيل لهذه المهمة الشريفة هو اصطفاء وتوفيق من الله، فنحن نرى الجامعات الإسلامية تخرِّج الألوف في كل عام من أقسام العقيدة والدعوة، ثم يأتي مَن يهدي الله به عباده ممّن هم مِن خارج هذه الترشيحات البشرية، إنه الاصطفاء والتوفيق من الله، فيختار لهذه المهمة الشريفة من هم لها أهل، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

(١) رُوع الصَّحابة: قلوبهم ودخائل نفوسهم.
(٢) «صحيح البخاري» (٢٢٠).
(٣) «تاريخ الطبري» (٣/ ٥٢٠).

وفي واقعنا المعاصر نماذج دعوية هي قدوات معاصرة، استفادت من إمكانات العصر المتاحة، وطورت فعالية الدعوة.

من الأمثلة على ذلك الشيخ الدكتور عبد الرحمن السميط رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي أقام قرابة ثلث قرن في إفريقيا داعيةً إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وبقيت آثاره في القارة الإفريقية كلها، وأمثاله من الدعاة الذين تغربوا ونفع الله بهم، وقد كانت الغربة في ذلك الوقت معاناة، فلم تكن وسائل التواصل متاحة، ولا سهولة التنقل ميسَّرة، ومع ذلك احتملوها، واحتسبوها وبقيت آثارهم وتتابعت ثمراتُهم.

احتساب الاغتراب

إذا كنا تحدثنا عن مصعب بن عمير الذي لحق به المسلمون بعد سنة واحدة، فإن هناك مهاجراً آخر بقي في الغربة قرابة خمس عشرة سنة، وهو جعفر بن أبي طالب ومن معه؛ سافروا إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة، وعادوا إلى النبي ﷺ في السنة السابعة من الهجرة، فما بين هجرتهم ورجوعهم قرابة خمس عشرة سنة قضوها مغتربين في الحبشة، وكان المتوقَّع أن يرجعوا حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، لكنَّ جعفراً بقي، وبقاؤه في الحبشة ليس له تفسير إلا أنه بقي هو وأصحابه في دعوة الأحباش، ولذلك عندما أتى من الحبشة جاء معه وفد من مسلمي الحبشة نحوٌ من ثلاثين مهاجراً، وهؤلاء هم الذين رغبوا في الهجرة، وهناك غيرهم أسلموا، وبقوا في الحبشة، فكان جعفر ومَن معه مهاجرين وسفراء للإسلام في الحبشة، وهم أوّل مَن فتح إفريقيا وأضاءها بالإسلام.

لقد كان المسلمون المهاجرون في الحبشة يستشعرون فضل هجرتهم، ويحتملون ألم غربتهم، لعظيم الدور الذي يقومون به،

فقد كانوا دعاة، وكان من ثمرة دعوتهم إسلامُ النجاشي ملك الحبشة، وإسلام الأحباش هناك، والذي نتج عنه انتشار الإسلام في شرق القارة الإفريقية، وقد كانت البذرة الأولى لذلك هي دعوة هؤلاء المهاجرين المغتربين في ذات الله وذات رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فأنت في غربتك تحتسب ما يحتسبه هؤلاء السفراء، مثل ما كان حال مصعب بن عمير وجعفر بن أبي طالب وأبو ذر الغفاري وغيرهم رضي الله عنهم.

إنّ علينا أن نعتبر بهجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى المدينة ثم هجرتهم من المدينة، لقد هاجروا من مكة ـ وهي بلدهم وأحب البلاد إليهم ـ إلى المدينة، ثم هاجروا من المدينة وفيها ذكرياتهم الجميلة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويعلمون فضلها وفضائلها وفضل الموت فيها، وفضل الصلاة في مسجدها، ومثوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرانيهم، ومع ذلك هاجروا إلى الشام والعراق وخراسان ومصر وإفريقيا، وبقوا حيث هاجروا، وماتوا هناك، ولم يكن لهم هدف من هذه الهجرة وهذا الاستيطان إلا بلاغ هذا الدين، ولذلك كانوا أوتاداً للإسلام في كل بلد انتقلوا إليه.

وللغربة معاناتها

إنّ الداعية في غربته يعرض له ما يعرض للمغترب من أنواع المعاناة، ولواعج الحنين إلى البلد ونحو ذلك، ولكن ينبغي أن يغالب ذلك بالصبر والاحتساب، واستشعارِ أنَّ ما هو فيه هجرة وجهاد في سبيل الله، وأن ما يبذله من معاناة مدَّخَرٌ له عند الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الدروس البليغة في ذلك حديث أسماءَ بنتِ عميس رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عندما رجعت من الحبشة في السنة السابعة من الهجرة بعد غُرْبة خمس عشرة سنة، وللغربة في ذلك الوقت معاناتها المضاعفة، فليس ثمة اتصال ولا انتقال، وإنما كانت الغيبة غيبة كاملة، وانقطاعاً تامّاً عن البلد والأقارب والأصحاب، والعيش في بيئة غريبة عنه، ومع ذلك كان سلوتهم أنهم بقوا في هذه الغربة في ذات الله ورسوله، ولذلك لما رجعت وقال لها عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «سبقناكم بالهجرة والجهاد مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ». قالت: «كلّا والله، بل كنتم مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يُطعِم جائعكم،

ويُعلِّم جاهلَكم، وكنا في دار البُغَضَاء البُعَداء، وما ذاك إلا في ذات الله ورسوله، والله لا أذوق ذواقاً ولا أشرب شراباً حتى أذهبَ إلى رسول الله ﷺ فأخبرَه بما قلت»، ثم ذهبت من فورها إلى النبي ﷺ فقالت: «يا رسول الله، أرأيت ما يقول ابن الخطاب؟».

قال لها: «**وَمَاذَا قَالَ؟**».

قالت: «يقول: سبقناكم بالهجرة وسبقناكم بالجهاد مع رسول الله ﷺ».

فقال لها رسول الله ﷺ: «**وَمَاذَا قُلتِ أنتِ؟**».

لاحِظْ أن النبي ﷺ لم يُجِبها، وإنما سألها عمّا قالت هي، لعِلمه أنها كانت تعي دورها ورسالتها.

فقالت: «قلت: لا والله، بل كنتم مع رسول الله ﷺ، يُطعم جائعكم، ويُعلم جاهلكم، وقد كنا في دار البُغَضَاء البُعَداء وذلك في الله وفي رسوله».

فقال لها الرسول ﷺ: «**لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلِأَصحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ -أَهْلَ السَّفِينَةِ- هِجْرَتَانِ**»(١). ولاحظ أن هؤلاء الذين أتوا قد فاتتهم غزوة بدر وغزوة أحد وغزوة الخندق وبيعة الرضوان، ومع ذلك كان حالهم خيراً ممن شهدها، لأن غيابهم عنها كان في ذات الله ورسوله.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٣٠)، و«صحيح مسلم» (٢٥٠٣).

فانظر إلى هذا الوعي عند أسماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بدورها، وأن معاناتها وغربتها كانت عملاً رسالياً تحتسبه عند الله عَزَّوَجَلَّ، وتفتخر به إذا افتخر غيرها بجهاده وهجرته.

إننا نرى مهاجرين في طلب الرزق، ومهاجرين في طلب الأمان، ومهاجرين للدراسة أو العمل، ومع ذلك يحتملون ألم الاغتراب ويقاومونه بنشوة الإنجاز وتحقيق الأهداف.

فكيف بمن يهاجر لرسالة سامية وأهداف عظيمة، يعامل فيها ربه عَزَّوَجَلَّ، وينتظر أثراً يتتابع له في حياته وبعد مماته، ويرث بعمله مهمة أنبياء الله ورسله في بلاغ رسالات الله إلى العالمين، ويعلم أنَّ كل ما يعمله وينويه فقد وقع أجره على الله، أدركه أو لم يدركه! ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

البدء بالأسس والـمُهِمّات

لما أرسل النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ**»[(١)].

وهذا الحديث يقدم منهجية في الدعوة، بحيث تكون البداءة مع المدعو بالأسس الرئيسة، وأهمها عبادة الله عز وجل وحده، وتعظيمه، وإفراده بالقصد والتوجه، فإذا استجاب لذلك ينتقل إلى تطبيقات هذه العبودية وأهمها الصلاة، ولاحِظ قول النبي ﷺ: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ**» مما يبين مرحلية الدعوة، وأن الداعي ينتقل من تكليف إلى تكليف آخر عندما تتحقق الاستجابة والانقياد، ولذلك ينبغي أن تكون العناية بالمسلمين الجدد بما يعزز يقين الإيمان في نفوسهم،

(١) «صحيح البخاري» (١٣٩٥)، و«صحيح مسلم» (١٩).

فيُعَلَّمون من الدين أسسه، وبرامجه العملية خصوصاً برنامج اليوم الواحد: ما الذي يحتاجه من الدين في يومه؟، وقد قال مالك بن الحويرث: «أتينا النبي ﷺ، ونحن شَببةٌ متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، ثم قال لنا: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[1]. ولك أن تتساءل ما الذي تعلمه هؤلاء الشباب وأُمروا بتعليمه خلال إقامتهم عشرين يوما في المدينة، وهم حدثاء عهد بإسلام؟، إنّهم تعلموا أسس الدين، والبرنامج الحياتي للمسلم، من العبادة اليومية والأخلاق اليومية في التعامل.

وهذا هو الذي ينبغي العناية به عند تعليم المسلم الجديد، دون تشتيته بمسائل يمكن أن يتعلمها بعد ذلك بطول الصُّحبة وتمكن الإيمان في قلبه.

إن علينا عند تلقي المسلم الجديد أن لا ندخله في تفريعات تُثيرُ عنده حَيرة، أو تُحدِث له نفرة، وإنما نركز معه على الأصول الإيمانية والقيم الأخلاقية، وإعطائه بوصلة الحراك الاجتماعي، وأنّه بهذا الإسلام لن يفقد علاقاته، ولنْ يدخل في مواجهة مع مجتمعه، ولنْ تنقلب حياته رأساً على عقِب، بلْ إنّ هناك واجبات اجتماعية وعلاقات ينبغي أن يُحافظ عليها ويعتني بها ويلتزم الخلق الحسن فيها.

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٠٨)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).

وقد كتبت كتيبا بعنوان: «إلى أخي وأختي»[١]، وهو كتيب مختصر جدا، فيه أهم هذه القيم التي ينبغي أن يُلفَت إليها نظر المسلم الجديد، في علاقته مع ربه، وفي علاقته مع الناس، وفي تعامله مع خطاياه السابقة، ومع هفواته الحياتية، وكيف يتعزز إيمانه وتتعمق القيم في نفسه.

كما أنّ علينا الحذر من إشغاله ببعض الفرعيات التي تقبل التأجيل، والخيار فيها واسع، مثل مسألة الختان، فينبغي أن لا يُفاجَأ بها، بل يتعرف عليها بعد أن يرسخ في الدين، وكونه يموت مسلما غير مختون أولى من أن يُعرض عليه الختان فيتسبب في رِدّته، فالختان من خصال الفطرة، وعدم الختان ليس من نواقض الإسلام.

وكذلك تغيير الاسم، وتغيير الزي، وإزالة الأوشام، كل هذه ينبغي ألا تكون محل فتنة للناس، والأصل أن كل إنسان يبقى على اسمه ما لم يكن هذا الاسم محرَّم المعنى، مثل: عبد المسيح ونحو ذلك.

ولذلك لم يغيّر الصحابة أسماءَهم عندما أسلموا إلا الأسماء المنكرة، ولم يغيروا زِيَّهم، فالذي يلبسه النبي ﷺ هو الذي يلبسه أبو جهل، فليس من الصواب أن نُلبس كل مسلم الطاقية مثلاً، فهذه ليست من شعائر الإسلام.

---

(١) يمكن الحصول على الكتاب من هنا:

والمهم أن نعتني بما في قلبه، وأما اللباس فيلبس لباس قومه ما لم يكن فيه محرم، ولباس الرجال اليوم صار عالمياً متقارب الشكل والهيئة.

ومن المهم ترتيب الأولويات ومراعاة التدرج في تطبيق بعض الأمور المشروعة من الواجبات والمستحبات، مما قد يأتي الاستعجال به بأمور عكسية، مثل الاستعجال على الرجال بإطلاق اللحى، أو على النساء بالحجاب الكامل مباشرة، فإن التأخر في تطبيق هذه الأمور مراعاة لظروف الناس وعاداتهم ومصالحهم الدنيوية يكون مقبولاً إلى أن يستقر الإيمان في قلوبهم وتتكامل معرفتهم بالإسلام، فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ القرآن سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَداً، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَداً، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ»[١]. أي وهي عنده في المدينة.

ولـمّا أرسل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معاذاً وأبا موسى إلى اليمن داعيَين وقاضيين أوصاهما فقال: «**يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**»[٢]. وهذه الوصاة النبوية ينبغي أن تكون دستوراً وبرنامج عمل لكل الدعاة، فيحرصوا أن يكون خطابهم خطاب بشرى،

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٤١)، و«صحيح مسلم» (١٧٣٣).

تُتَألف به القلوب، وأن ييسروا، ولا يعسروا، ويراعوا طبيعة المجتمع الذي وصلوا إليه، وأن الأرفق به هو اليسر والتيسير، ولا يصح أن يؤخذ حدثاءُ العهد بالإسلام بالعزائم، وإنما يؤخذون بالتيسير ما أمكن، وقد يندفع بعض الشباب في بداياتهم للأخذ بالعزائم من النوافل والطاعات، خاصة حينما تحف بهم بيئة طيبة تساعدهم على ذلك كالرحلات والمخيمات الشبابية، وهذا أمر إيجابي يُحتفى به، ولكن المهم أن يعي المسلم أن هذه الأجواء الجميلة المنوّرة بالطاعات معرضة للانقطاع في الحياة المعتادة للناس، وأن انقطاعها ليس تركاً للدين، ولا ضعفاً في التدين.

قال حنظلة الأسيدي: «لقيني أبو بكر فقال: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟. قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله، مَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيراً، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«وَمَا ذَاكَ؟»**. قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيراً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ،**

لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[1].

وهذا الحديث أصل في رفع الحرج عن المسلم، وأنه لا يُطلب منه أن يكون على حالة واحدة من التسامي والخشية والمراقبة، فإن للنفس نشاطاً وفتوراً، وإقبالاً وإدباراً، ولكن ساعة وساعة.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٥٠).

الفتاوى في بلاد الأقلّيات

جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس في المدينة وسأله عن مسألة، وذكر أنه أُرسل بها من مسيرة ستة أشهر من المغرب، فقال: «ما أدري، وما ابتُلينا بهذه المسألة في بلدنا، ولا سمعنا أحداً من أشياخنا تكلّم فيها، ولكن عُد إليّ». فلما كان من الغد جاء الرجل وقد حمل ثقله على بَغله يقوده، فقال: «يا أبا عبد الله، مسألتي». فقال الإمام مالك: «ما أدري ما هي». فقال الرجل: «يا أبا عبد الله، تركتُ خلفي من يقول: ليس على وجه الأرض أعلمُ منك». فقال مالك غيرَ مُستوحِشٍ: «إذا رجعتَ فأخبِرهم أني لا أُحسِن»[1].

والذي يظهر أن الإمام مالكاً إنما اعتذر عن الإجابة لأن هذه المسألة مما يخصّ ذلك البلد الذي قدم منه السائل، ولها ظروفها، وليست مما يقع مثله في بلد مالك، ولذا قال: «ما ابتُلينا بهذه المسألة في بلدنا». فمسألة هذا السائل لها تعلّق بظروف تلك البلاد وأعرافها وأحوالها، وهي ملابسات مؤثرة في الحكم، فلا يُفتي فيها إلا من تصوَّر واقعها.

(١) «الموافقات» للشاطبي (٥/ ٣٢٦).

وإذا كان الإمام مالك راعى اختلاف أحوال السائلين باختلاف أحوالهم، مع أنهم كلهم في بلد إسلامي واحد، فكيف بأحوال المسلمين في بلاد الأقليات والذين تعرض لهم نوازل واستفتاءات لها ملابساتها الخاصة وإكراهاتها المُلجئة؟!.

وقد قرّر ذلك العلماء المحققون، فقال القرافي: «ينبغي للمفتي إِذا ورد عليه مُستفتٍ، لا يَعلمُ أنه من أهل البلد الذي منه المفتي وموضعُ الفتيا، أن لا يُفتيَه بما عادتُه يُفتي به حتى يَسأله عن بلده، وهل حدَثَ لهم عُرفٌ في ذلك البلد، وهذا أمرٌ متعيِّنٌ واجبٌ لا يَختلف فيه العلماء، وأنَّ العادتينِ متى كانتا في بلدينِ ليستا سواءً أنَّ حُكمَهما ليس سواء»[(١)]، وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي: «إذا استفتاك رجل من غير إقليمك فاسأله عن عرف بلده وأفته به دون عرف بلدك، وهذا هو الحق الواضح»[(٢)]. ولذلك ينبغي على الداعية هناك التأني في الفتوى والرجوع إلى أهل العلم ممن عنده تصورٌ لهذه الظروف والإكراهات التي يتعرض لها المسلمون في هذا البلد، ومِن ذلك الرجوع إلى المجامع الفقهية التي لها عناية بحال الأقليات الإسلامية، فإنَّ للمسلمين في بلاد الأقلّيّات ملابساتهم وظروفهم الخاصة، واستشكالاتهم في مثل فتاوى التأمين، والقروض من البنوك لشراء السكن ونحو ذلك، ولا يصح أن تستورد لهم فتاوى من علماء يعيشون في بلاد إسلامية قد يكون لهم رسوخهم العلمي ولكنْ ليس لديهم تصورٌ لواقع المسلمين في هذه البلاد، واطلاعٌ على ظروفهم الخاصّة،

---

(١) «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام» للقَرَافي (٢٣٢).

(٢) «لوامع الدرر في هتك أستار المختصر» للمجلسي (١/ ٧١).

ولذا ينبغي الرجوع فيها للمجامع التي تدرس هذه المسائل مع مراعاة حال هؤلاء وظروفهم، ومن هذه المراجع الإفتائية:

١ ـ المجلس الأوروبي للإفتاء.

٢ ـ مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا (أمجا).

٣ـ مجمع الفقه الإسلامي بِجُدّة (التابع لمنظمة التعاون الإسلامي).

٤ ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ونحوها.

فلديهم خبرة بحال أهل هذه البلاد والظروف والملابسات المؤثرة في إفتائهم، وما ينبغي اعتباره في ظروفهم، وعند إفتائهم.

تكوين المجتمع المسلم

ألم يشدك تأكيد النبي ﷺ على علاقة المسلم بأخيه المسلم، وما وضع لها من وسائل تحقق التواصل وتستنبت المودة، وتؤكد التلاحم بين أبناء المجتمع، حين قال: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ**»، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ**»[(١)]؟.

إن هذه الخصال وسائل تقوي التواصل وتحقق فاعليته وتؤكد ارتباط الفرد بالجماعات التي تحتويه وتحميه.

وإن انفراد المسلم عن إخوانه وعزلته عنهم سبب لفتوره أو ضعفه، ولذا أمر النبي ﷺ بالجماعة فقال: «**عَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**»[(٢)].

(١) «صحيح مسلم» (٢١٦٢).
(٢) «سنن أبي داود» (٥٤٧)، و«سنن النسائي» (٨٤٧).

وكان من حِكَمِ صلاة الجمعة والجماعة تقويةُ العلاقات الاجتماعية بين المسلمين، ليتحقق تواصلهم وتعاونهم على البر والتقوى.

ولِذا فإن من المهم تقويةَ العلاقة بالمسلم الجديد واستمرارها، وربطه بجماعة المسلمين في بلده، وتقوية علاقته بالمسجد، وإيجاد رابطة بين المسلمين في بلادهم، وذلك بتكوين بيئة إسلامية بحسَب المتيسِّر والمتاح، كالمدارس والجمعيات والروابط بين الفئات، كالروابط الطلابية والروابط التعليمية والروابط المهنيّة ونحوها، وجمعهم في اجتماعات دورية، خصوصا صلاة الجمعة والأعياد، فتوجِدُ نوعاً من التواصل بينهم، واستفادةَ بعضِهم من بعض، وهذه الجمعيات والروابط تُشعرهم بالوحدة، وتدعم وجودهم بالتعاون والتلاقي والتناصح، والتجمع عصمةٌ لهم، وشدٌّ لأزر بعضهم ببعض، وتقوية علاقة المسلم الجديد بإخوانه، فإن الذئب إنما يأكل من الغنم القاصية.

والتركيز على الناشـئة والأجيال القادمة وبخاصّة أبناء المسـلمين الجـدد، بالتّعـرّف عليهـم، والتواصـل معهـم وتأهيلهـم ودعـم الموهوبين منهم.

واختيار النابهين ذوي الفعالية والتأثير لتأهيلهم للدعوة، واستنبات الدعاة في كلّ بلد من أهله، فهم أقدر على التّأثير والاستمرار، لتكون أعمارهم امتداداً لعمرك، وأعمالهم في ميزان عملك، وآثارهم بقيةً من أثرك.

خامساً

مجتمع الدعوة

الأقربون

بُعث النبي الكريم ﷺ إلى العالمين كل العالمين إنسِهم وجِنّهم، ومع ذلك يأتيه الأمر الإلهي بنذارة خاصة مع تلك النذارة العامة، وهي نذارة عشيرته الأقربين بنذارة خاصة مع الدعوة العامة: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وبادر ﷺ إلى امتثال الأمر، فصعد على الصفا ونادى في أحياء قريش، فعمّ وخصّ وصاح بهم: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً، ويَا فَاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا**»[١].

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (٢٧٥٣، ٤٧٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦). =

إنك تجد في هذا النداء حرارة الانفعال، ولهفة الإشفاق، وصدق المناشدة، إنها صيحة مستنقِذٍ لا يألو نُصحاً، ولا يدّخر جهداً.

وإن أسعد الناس بدعوة الداعية ينبغي أن يكونوا ذوي قرابته وقُرباه، وإن أثمن ما يقدمه الداعية لأحدٍ هو دعوته وهدايته، فليكن أهله وأقاربه أوّلَ من يظفر بهذا الخير، و«**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ**»[(١)].

وهذه سُنّة أنبياء الله ورُسله، فَأَهْلُهم وأبناؤهم هم الدائرة الأولى في دعوتهم، فهذا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يناشد ابنه في آخر فرص النجاة، وآخر لحظات الحياة: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يدعو أباه ببرٍّ وشفقة: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥].

ويعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يُنفق آخر أنفاس عمره في تجديد الوصاة لبنيه، ليطمئن على سلامة دينهم قبل أن يفارقهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ [البقرة: ١٣٣].

وهكذا كان نبيّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يناشد عمَّه أبا طالب، ويتابعه بالدعوة إلى فراش الموت، فيقول له وهو يحتضر: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، وما زال يكررها عليه ويمدّ له حبل النجاة، حتى لفظ آخر أنفاسه[(٢)].

= «سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا»: أي أصِلُكُم في الدنيا ولا أُغْني عنكم من الله شيئاً. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ١٥٣).

(١) «سنن ابن ماجه» (١٩٧٧)، و«سنن الترمذي» (٣٨٩٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤).

وفي حياته ﷺ نرى حضور هذا المعنى بجلاء، فهو يأخذ بالعزم والحزم نَفْسَهُ وقرابته، فهو الذي يقوم من الليل فيتهجّد، ويطرق باب ابنته وهي في فراش زوجها لتتلقّى بركات التنزّل الإلهي، فيناديها وزوجَها في هَدأة الليل وهزيعه الأخير: «**أَلَا تَقومَانِ فَتُصَلِّيَانِ؟**»[١]. وفي العشر الأواخر حين يشدّ مئزره ويُحيي ليله، فإنه يُوقظ أهله ليشارِكوه جِدَّ العبادة ولذّة التبتل[٢].

وجاءت ابنته فاطمة إلى بيته تطلب منه خادماً بعد أن أرهقها العمل في بيت زوجها، فلما علم بطلبها أتاها من فوره في الليل وقد أوت مع زوجها إلى فراش الزوجية، فيستأذن عليهما ويجلس بينهما، ثم يقول: «**أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا، فَسَبِّحَا ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ، وَكَبِّرَا أَرْبَعاً وَثَلاَثِينَ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**»[٣]. يا لله! يطرق عليهما في الليل ولا ينتظر إلى الصباح، لحرصه على أن يعلّمهما ذكراً يقولانه قبل النوم، ويبدآنه هذه الليلة.

فإذا كان وقت الخصوصية الزوجية يدخل فيه على ابنته للتعليم والدعوة، فما الذي كانت تتلقّاه منه فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في سعة وقتها واتساع عمرها؟!.

---

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (١١٢٧، ٧٣٤٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٣٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٢٧).

ويعلّم ابنَه الحسن، وهو لم يغادر سنّ الطفولة بعد، ماذا يقول في قنوته إذا دعا ربه: «**اللهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ**»(١)، وهو الدعاء الذي يدعو به المسلمون اليوم في قنوتهم، وكان أوّل من تلقّاه من رسول الله ﷺ هو الحسن، وهو لا يزال في سن الطفولة، ثم تلقته الأمة منه، فإذا كان هذا الطفل في هذه السنّ تُغرس في قلبه هذه المعاني العظيمة فكيف ببقية أقربائه الذين عاشوا معه حياة أوسع، ماذا علمهم وكيف دعاهم ورباهم ؟!.

وهذا السنن النبوي في دعوة الأقربين وبرِّهم بالهداية قبل غيرهم هو من الإحسان إليهم، فالأقربون أولى بالمعروف، وهو من براءة الذمة وأداء الأمانة، فلا يصحّ أن يدعو الناس ويفرّط في حقّ أولى الناس به؟! «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ**»(٢).

وفي البداءة بالأقربين دليل على مصداقية الداعية في دعوته وتشبُّعه بها، ولذا طبّقها على نفسه، ودعا إليها أقرب الناس إليه.

وفي المجتمعات الإسلامية لا تزال القرابة وشيجةً رابطةً بين الأقارب، والصلةُ بينهم موصولة، ولِذا فإن خير ما تُستثمر به وشائج علاقة القربى هو نشر هدايات الوحي والدعوة الحكيمة المؤثرة،

(١) «سنن أبي داود» (١٤٢٥).
(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٩١٣١)، و«المستدرك» للحاكم (٨٥٢٦).

والبرامج التربوية المشتركة التي تستقبل الأجيال القادمة بحسن التوجيه وسديد النصح، بالطريقة الحكيمة التي تحتوي بحبّ، وتدعو بحكمة، وتَعِظ بإحسان، وتُبقي أثراً خَيِّراً وتربيةً صالحة.

وعلى الداعية أن يكون في دعوته لذوي قُرباه بخاصةٍ متفائلاً متفاهماً، يسبق إحسانُه دعوتَه، وصِلتُه نصحَه، وأن يُشعرَ كلّ أحدٍ مِنْ أقاربه بأهميته واهتمامه، ويحتويَ أيَّ مشكلة، ويبادرَ لتسوية أي خلافٍ حتى لا يتحوّل إلى قطيعة.

وإذا ابتُلي بمن يستعصي على النصح، ويلجّ في الشقاق، فعليه أن يعتصم بالصبر الجميل، ويكون هو مَن يحتوي الخلافَ ويسوِّيه، أو يوقف تصعيده، فإذا سلك سُبُلَ الاِحْتواء ودفع الإساءة بالتي هي أحسن، فقد أدّى ما عليه، ولا يضرُّه إصرارُ مَن أصرّ، وإعراض من أعرض، فهذا نوحٌ استعصى عليه ابنه، وهذا إبراهيم عاداه أبوه، وهذا نبيُّنا ﷺ لم يستجب له عمُّه على قُربه ورعايته، فواجبُنا الدعوة، وليست بأيدينا الهداية، ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦].

أصنام الأوهام

اعتاد أبي شرب الشاي المعروف في قريتنا، والذي كان شاياً مغشوشاً بالأصباغ ونُشارة الخشب، وكان طعم هذا المزيج هو طعم الشاي الذي نعرفه ونعتاده، ثم جاء لزيارتنا قريب لنا يعمل في ليبيا، وكانت هديته لأبي شاياً سيلانياً فاخراً، وعملنا من هذا الشاي الجديد لوالدي فلما ذاقه لم يستسغه، فقد قطّب جبينه وزمّ شفتيه، وتمتم بكلمات توحي بالتذمّر والاشمئزاز، وعاد إلى الشيء الذي ألفه، وهو يراه الشاي الحقيقي الأصيل، ويرى أنّ هذا الجديد ليس إلا شاياً رديئاً لا طعم له ولا مذاق.

وشرعت أتأمل تآلف العقل البشري مع الوهم، حيث استغرب أبي طعم الشاي الأصيل ثم عاد إلى المغشوش الذي ألفه، وكأنَّ ذلك المشهد مرآةٌ صغيرةٌ لمأساةٍ كبيرة، وهي تآلف كثيرين مع أوهامٍ وخرافاتٍ تستقر لطول الألفة والاعتياد، كأنها حقائق، وهذا ما يفسر استمرار عبادة آلهة زائفة، واستقرار خرافات صارت شعائر راسخة،

وأن سلطة الأُلفة، وتتابع التكرار، والانقياد الجمعي تجعل تلك المعبودات المزيفة أرباباً مقدسةً.

إنّ عبادة البقر في الهند، وعبادة الأصنام في الجاهلية، ليست في جوهرها سوى تجسيدٍ لهذا المرض نفسه: حين تُصبح العادةُ ديناً، والمألوفُ وحياً، والسكوتُ على الزيف نوعاً من العبادة الجماعية المطمئنة.

كذلك المجتمعات التي تنشأ على الزيف تُصبح أسيرة لصورها الموروثة، حتى تغدو قداسة الصورة أقوى من سلطان الحقيقة، وحينذاك لا تقوم العبادة على اقتناعٍ عقليٍّ أو دليلٍ منطقي، بل على عادة التكرار وولاءٍ جماعيٍّ راكد.

إنّ الداعية والمفكّر حين يواجهان هذا الواقع لا يواجهان ضلالاً عارضاً، بل ذائقةً فكرية فاسدة كالحاسّة التي لم تعد تفرّق بين النقيّ والمغشوش، وتُحكّم المألوف لا الصواب، وتُقدِّس الوهم لا الحقيقة(١).

وإن هذا الباطل لا يستمد سلطته من قوة حجّته، ولكن من طول اعتياده وأُلفته.

وهذا ما يبيّن لنا كيف استعصت قريش على دعوة النبي ﷺ عشرين سنة، متشبّثين بعبادة حجرٍ صنعه بشر، ويجعلونه ندّاً لله العليّ الأعلى، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

---

(١) يُنظر: «بين الفلاحين والملاّحين» لمحمد فكري تمام.

إنّه التشبّث بالوهم القديم الذي تتابع واستقرّ كأنّه حقيقة، وقد عانى ﷺ ما عانى، وأُوذي ما أُوذي، وصابر ما صابر، وجاهد ما جاهد حتى يُزيح هذا الوهمَ ويكشف هذا الزيف.

ولذا فعلى الداعية أن يوطّن نفسه على أنّ إزاحة أصنام الأوهام تحتاج إلى مجاهدة، وحُسنِ تأتٍّ، وطولِ صبر ومصابرة، وأنّ وضوح زيف الباطل أمامك ليس كوضوحه أمام من تدعوه، فهو يعتقده الحقيقة المطلقة، لطول إلفته لها، وعدم معرفته بغيرها.

وهذا يبيّن لنا لماذا لم يحطّم النبي ﷺ أيّاً من أصنام قريش حين دعوتهم، بل لم تُحطَّم هذه الأصنام إلا بعد فتح مكة، لأنّه كان مشغولاً بتحطيم مكانتها في عقولهم، وكشف زيفها وبيان حقيقتها.

ولِذا فإنّها عندما سقطت حطاماً على الأرض كانت قد سقطت قداستها قبل ذلك في نفوسهم، واتّضحت حقيقتها، وانكشف زيفها.

وهكذا كلّ زيفٍ استقرّ بطول الاعتياد والتكرار يحتاج إلى طول صبر ومجاهدة، لإزاحة الوهم وإحلال الحقيقة.

المحايدون هم المساحة الأوسع

يا لله! لهذا المشهد العاجب الذي خلده الله في كتابه، وأبقاه عبرة للبشرية وللدعاة منهم أولاً، إنه قصة الأعمى التي أنزل الله فيها آيات تُتلى، عندما جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسألُه، فانشغل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه بدعوة كبراء قريش، طمعاً أن يُسلموا، فيُسلِم أتباعهم بإسلامهم، فأنزل الله عزّ وجلّ عتابا إلهيّاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ٥-١٢]. هذا العتاب الإلهي لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم يبصرنا بحقيقة أن الانشغال بالـمُقبل أَولى من الاشتغال بالـمُعرض، والانشغال بمَن ليس عنده عداوة سابقة وعناد مُسبَق، أَولى مِنَ الِانْشغال بالمعاند المكابر.

وإذا نظرنا الآن إلى البشرية بعمومها فسنجد أن الغالبية العظمى من غير المسلمين ليس عندهم موقف عدائي مسبق للإسلام، وليس عندهم معلومة إيجابية ولا سلبية عنه، فهم فئة محايدة، وإن كان يوجد طوائف اتخذوا موقفَ عنادٍ عدائيٍّ للإسلام، واتخذوا موقع المُحادّة له،

ولذلك ينبغي أن يكون انشغالنا بالفئة الأولى، لأنها هي الأكثر، وهي الأقرب للقبول، وهي الأَولى أن يَبْلُغَها الدين بصورته الصحيحة قبل أن يصل إليها بطريقة مشوهة.

وأكثر النصارى المنسوبين للنصرانية الآن لم يقرؤوا كتابهم المقدس، ولم يفهموا إلى الآن إشكالية التثليث ولا الخطيئة الأصلية وعقيدة الفداء، ولا الاختلافات المضادة في كتابهم المحرف، وغير ذلك من المعضلات المنطقية، والتي لا يواجهونها، والتي لو واجهوها لتغيرت آراء كثير منهم، كما أن موقفهم من الإسلام ليس محسوماً بالعداء، وإلى هذه الفئة ونحوها ينبغي أن يَتوجه الجهد، بدلاً من أن نضيع جهودنا في جدال المخاصمين الخَصِمين.

وقلما ينتهي الجدال والمناظرات بالتسليم، لأنَّ كل مَن تدخل معه في جدال أو مناظرة يتخذ موقف التحصّن والـمُدافعة، ولِذا أُمِرنا بالمجادلة بالتي هي أحسن، فينبغي أن يكون عَرض الدعوة هو التعريف بالدين، بحيث نُشعِر مَن ندعوه أننا إنما نعرّفه بهذا الدين، ونوضّحه له، أما اتّباعه فهذا خِياره، وهداية الله له.

الدعوة ووسائل التواصل

فاجأ النبي ﷺ قريشاً في الصباح وهم في أنديتهم حول الكعبة بندائه الصارخ، وهو فوق صخرة الصفا ينادي: «**يَا صَبَاحَاهْ، يَا صَبَاحَاهْ**»، وهذا نداء النذير الذي يأتي قومه محذراً من عدوٍّ قد فاجأهم، ليستعدوا ويأخذوا حذرهم، واجتمع أهل مكة إليه، وقد جذبهم النداء والمنادي حتى إنَّ من لم يستطع الحضور أرسل من يأتيه بالخبر، فلما اجتمعوا قال لهم: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قالوا: «ما جرَّبنا عليك كذباً»، قال: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»[١].

ونلاحظ هنا استعمال النبي ﷺ العادة العربية في الاستنفار والنداء العاجل، ثم استشهادهم على صدقه قبل أن يخبرهم، ثم تقديم النذارة بعد ذلك، وهذه كلها أساليب في جذب انتباههم وتهيئة نفوسهم لتلقي الخير.

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).

ثم صار يغشى الأسواق ومجامع الناس ومواسم الوفود ويستغل فرص اللقاء العام ليعرض دعوته في هذه المجامع.

ثم بعد صلح الحديبية صار يكاتب الملوك والزعماء، واتخذ خاتماً يختم به رسائله التي يرسلها إليهم.

ونلاحظ هنا هذا التنوع في وسائل الدعوة وطرائقها، واستغلال كل وسيلة، وسلوك كل طريقة مؤثرة.

ولِذا فإن من المهم استغلال وسائل التواصل الاجتماعي المتجددة، والاستفادة من كل ما يجدّ منها، فعالم وسائل التواصل أصبح منافِساً لوسائل الإعلام التقليدية التي تراجع تأثيرها كثيراً، ولذلك لا بُدَّ من اختيار الشباب والفتيان ذوي المهارات في مجال التواصل الاجتماعي والذكاء الاصطناعي وإقامة حملات من خلال وسائل التواصل، حتّى تصل الدعوة إلى كثيرين لا يمكن أن يصل إليهم التواصل المباشر.

وفي زيارتي للمكسيك التقيت بشاب متوقدٍ حماساً وحيويةً وقناعةً بالدين واكتشفت أن عمره في الإسلام لم يتجاوز عشرة أشهر، وعندما سألته عن قصة إسلامه اتضح أنه تعرف على الإسلام من خلال أحد المواقع الإلكترونية، ثمّ تواصل مع هذا الموقع، فعرف الإسلام، وقال لي: ولم يستغرق اتخاذي قرار الإسلام أكثر من أربع وعشرين ساعة، وكان شعلة من التوقد والنشاط، ولذلك فمن المهم أن توجد على هذه المواقع المتنوعة كلمات قصيرة تعرّف بالإسلام، وبالمسجد في المدينة، وبالمركز الإسلامي ونشاطه وبرامجه.

ومن المهم توثيق قصص المسلمين الجدد، والذين أحدث تحولهم إلى الإسلام نقلة في حياتهم، وأصبحوا من ذوي الاستقرار والثبات، فإذا تكلم عن الإسلام والدخول فيه ابنُ البلد كان ذلك أكثر جاذبية وتأثيراً.

وكذلك مَن كان من الدعاة لهم تجرِبَة طويلة وثرية يَحسُن بهم كتابة تجاربهم وتوثيقها، حتى يستفيد منها مَنْ يأتي بعدهم، ولتكون وثيقة دعوية وتاريخية للإسلام في هذا البلد.

الدعوة والعمل المؤسَّسي

على الإخوة الأئمة في كل مدينة تحويل عملهم إلى عمل مؤسسي له نظامه وله هيئته الإشرافية، بحيث يظل هذا العمل غير قابل للآفات التي تصيب الأعمال الفردية، فالأعمال الفردية لها آفاتها، والتي تضعفها أو تقضي عليها وتدمرها، أما عندما يصبح العمل مؤسسيّاً وله نظام حوكمة، وإشراف جماعي فإنه يكون قابلاً للنمو والتطور، ويكون أكثر تأثيرا واستمرارية، ويصبح عمره غير مرتبط بأعمار القائمين عليه، وهذا النوع من الأعمال هو الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض.

وليحذر الدعاة في غربتهم من الفوضى المؤسسية التي لا يستقر معها حال، ولا تظهر بها ثمرة، فمن المستغرب أن يعيش الداعية المغترب في دولة متقدمة من حيث معايير الشفافية والمأسسة ولا يستفيد من واقعه شيئاً، ومن المؤسف أن نرى اليوم تحوُّلَ كثيرٍ من المراكز الإسلامية في الغربة إلى مكاتب لأشخاص بأعيانهم لا يفارقونها ولا تفارقهم حتى يداهمهم الموت، ولا ينقضي العجب

من جرأة البعض على تحويل ملكية بعض المساجد أو المرافق التابعة لها من مبان وأوقاف إلى ذواتهم وتسجيلها بأسمائهم، لتتحول إلى ملكية خاصة تورث وتنقل، وهذا من الخطأ الفادح والعمل المَعيب!.

هذه البيئة الطاردة لا تنتج مشروعاً، ولا يرجى من خلالها إلا التعرض للمصائب، والانحدار في متاهات الفساد، وانعدام المسؤولية، وإظهار الإسلام في صورة غير مرضية، وهل يرى غير المسلم إلا المساجد وأصحابها؟!.

ومن المهم توثيق الصلة بالجهات الرسمية في بلد الدعوة، سواءٌ منها الأمنية أو الاجتماعية أو الدينية، والتواصل معهم عن طريق اللقاءات ودعوتهم لحضور المناسبات الدينية والاجتماعية، وتوضيح الصورة لهم، وألّا يكون هناك عمل يخالف القوانين والأنظمة، وبالوضوح ينطلق العمل وهو محصَّن قانونيّاً، وفي أجواء الفوضى والارتجال والغموض يَسهُل لصوق التهم، وتَوجُّه الدعاوى الكيدية، أو الوقوع في المآزق القانونية التي تضرّ بسير العمل وجهود الدعوة، وقد تحرق منجزاتها، وتقضي على مكتسباتها.

ولا عذر للدعاة المغتربين اليوم في عدم الاستفادة من معايير الإدارة الحديثة، والعمل المؤسسي، والشفافية، والرقابة، وهي جميعها في متناول اليد، وعند مرأى النظر والإمكان.

ومهما يكن من أمر، فإن التجرد لله، والصدق في الدعوة، وهضم الذات، وخفض الجناح، وتذكر الآخرة، لا تحفظ العمل وحدها بمعزل عن مأسسة المشاريع، واتباع سبل التخطيط، والاستفادة من أهل الذكر في كل فن.

أيها الدعاة: الإدارة اليوم، فن مستقل، وعلم متشعب، يحتاج إلى أخذه من منبعه، ولا عيب ولا عتاب على الداعية إذا لم يكن له فيها سهم، بَيدَ أن العيب والملامة إذا ادعى المعرفة، أو احتكر العمل، أو منع غيره من التصحيح فتحول إلى ديكتاتور بثياب دينية! نسأل الله السلامة والعافية.

سادساً

تصحيح المواعظ

حكايات القُصّاص

الوعظ ككل عمل عام، تقع الأخطاء في أدائه، ويتسلل له الدخلاء عليه، ولذا وجب التنبيه على الأخطاء والتحذير من الدخلاء، وفي هذه السلسلة نتحدث عن بعض هذه الأخطاء ثم عن أهمية الوعظ الرشيد في حياة الناس.

فمن ذلك حكايات القصاص، فهناك فئة من الوُعّاظ أدمنوا ذكر الحكايات الغرائبية وقصص التوبة الموضوعة، والاغترار بحكايات التائبين المزعومة وعرضها بطريقة فيها تهييج وإثارة.

والملاحظة أن قصص التوبة التي يذكرها هؤلاء الوعاظ لا بد أن يكون فيها شيء من الإثارة الجسدية، فالغالب ذكر التوبة من الفواحش، وقَلَّ أنْ تجد في قصص الوعظ توبةً من الغيبة أو مِن أكل الربا، لأن هذه لا إثارة فيها، لكن عندما يذكر الفاحشة وكيف ارتكبها، ثمّ كيف أنّبه ضميره بعد ذلك، وكيف ندم وتاب، ثم مات بعد أن تاب، ولا بد أن يقول: إنه مات بعد أن تاب، حتى يُغلِق الملف فلا يقال له: أين هو؟ ومن هو؟.

«وأذكر أننا كنا في يوم ثلاثاء من عام (٢٠١٠م) على موعد مع واعظٍ مشهور وازدحم المسجد بالشباب، وجلستُ بينهم أُصغي إلى موعظته التي بدت لي في ذلك العمر مؤثرة إلى حد بعيد، رأيت الدموع تنهمر من العيون، وكأن الخطاب يحمل قوى خفية لا تُقاوم.

وفي ختام المجلس أعلن الواعظ أنه سيعود إلينا يوم السبت القادم، وفي يوم السبت حضرنا مبكرين، وبدأ الواعظ حديثه بالأسلوب ذاته: دموع، وعَبَرات، وقصص لا تخلو من الإثارة في مواضع يعرف كيف يحرك بها مشاعر الفتيان.

غير أنّ ما فاجأني حقاً لم يكن مضمون الموعظة، بل قصة افتعلها الواعظ نفسه، حين تظاهر بأن ورقة وصلته للتو من أحد الحاضرين، أمسك بها، ثم فتحها ببطءٍ مُفتَعَلٍ، كما لو أنها رسالة من قلب مذعور يطلب النجاة، ووقف متظاهراً بأن هذه الورقة واحدة من رسائل الأسئلة المعتادة، فتحها على مهل أمام الناس، وشرع يقرأ بصوت متأثر ما زعم أنه كلمات شاب من الحاضرين: يذكر أنه حضر محاضرته الماضية يوم الثلاثاء، وكان جُنُباً من الزنى، وقد جَرّه صديقه جرّاً ليحضر، ثم ما إن سمع الموعظة حتى اهتز قلبه وأعلن توبته، وما إن عاد إلى بيته حتى كافأه الله بأن خطبت له أمّه فتاة صالحة في الحال، وتزوّجها، وكانت ليلة الأمس ليلة عرسه المبارك.

وما أن انتهى الواعظ من قراءة الرسالة حتى دوّى المسجد بالتكبير والتهليل، وانطلقت الصيحات تعلن فرحاً بالتوبة المزعومة، أمّا أنا فقد أخذتني الدهشة، جلستُ أتساءل في ذهني: أيعقل أن يتوب رجلٌ،

ثم يخطب، ثم يتزوج، ثم يُزَف في أربعة أيام؟ ومَن هو هذا الذي يَبني بعروسه ليلةَ أمس، ثم يخرج في عشية اليوم التالي ليحضر محاضرة في مسجد مزدحم؟!.

والكارثة أن هذا القَصّاص لا زال يخبّ ويضع في وسائل التواصل، ولا زالت آلة الوضع والوعظ عنده تعمل بكامل طاقتها الإنتاجية»[1].

ومِن أقبح الكذب ذاك الذي يذرف من بين شارب ولحية بيضاء، ويؤكِّد بالأيمان الفاجرة، وفي بيت من بيوت الله، وفي اليوتيوب مقاطع من هذا مُخزية، كذاك الذي يزعم أنَّ الجِدار انشقَّ أمامَه، فخرج منه عبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي، وكان ذلك يقظةً لا مناماً، وآخرُ يزعمُ أنه عُرض عليه أن يأتيه الرسول ﷺ يقظةً فاعتذر عن ذلك، وآخر يُلقي درساً على الدَّجاج فيُصغِين إليه بخشوع وخضوع «ما فيه دجاجة تنقر قمحة»، وأنواع من هذه التهاويل، وإني لأتخيل شابّاً في الجامعة يسمع هذا الكلام على أنَّه من الدين، كيف يكون نظره إلى الدين والمتديِّنين.

وبذلك تحولت هذه النوعية من الوعاظ إلى حكواتية وقصّاصين، وقل أن تجد عند أحدهم إرثاً علمياً في شرح كتاب، أو مجلس حديث، أو مجلس تفسير، وإنما بضاعتهم الحكاية باللغة الدارجة، مِنْ مثل: «فيه واحد عمل كذا»، و«فيه واحد كان كذا»، و«سأذكر لكم قصة عن كذا»، وهكذا تتحول مجالس الوعظ إلى مجالس قصص، حتى صار هؤلاء الوعاظ يسمون بالقُصّاص، وليتهم تحوَّلوا روائيّين أدباء، وليس وُعّاظاً كذَبة.

(١) «بين الفلاحين والملاحين» محمد فكري تمام (٥٠٣ ـ ٥٠٤).

تنزيل آيات الكافرين على المؤمنين

ربما تستمع إلى واعظ يحذر من ذنوب الخلوات ثم يقول: أليس الله يقول: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨]، مع أن هذه الآية تصف حال المنافقين الذين لا يستخفون من الله، لأنهم لا يؤمنون بلقائه.

ثم يؤسس عليها تعظيم ذنوب السر التي يخفيها الحياء، ويسمونها ذنوب الخلوات، وكأنها أعظم إثما من المجاهرة بالمعصية وإعلانها.

وإسرار المعصية الخفية أولى من الجهر بها، والمستتر بالمعصية أقرب إلى التوبة من الوقِح المتجاهر، فإنه يصرّ عليها ويبرّرها، قال ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ**»[١].

ولو كان الإنسان لا يخطئ في السر ولا في العلن صار على حال الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٩٠).

وقد قال ﷺ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»(١).

وقد تسمع من يخوف الناس من لقاء الله عَزَّوَجَلَّ ثمّ يستدل بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ويقول: وما يدريك إذا لقيت الله فوجدت أن حسناتك لم تقبل؟ ووجدت أن صلاتك قد ردت عليك؟ وما يدريك إذا لقيت الله فوجدت ما لم تكن تحتسبه؟ ووجدت أن ذنوبك التي استغفرت منها لم تغفر؟ والتي تبت منها لم يتب الله عليك؟ أليس الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، وربّما أرجف عليهم بما يُروى عن محمد بن المنكدر أنه جزع عند موته جزعاً شديداً فقيل له: ما هذا الجزع؟. قال: «أخاف هذه الآية: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، مع أن الآية في ذم الكفار المكذبين بلقاء الله، وأنهم عندما بعثوا واجهوا ما كانوا ينكرونه، وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبونه، وهو البعث بعد الموت ولقاء الله، والمحاسبة على الأعمال، فهذا الذي لم يكونوا يحتسبونه، أما المؤمنون فقد أخبر الله عن حالهم حين بعثهم فقال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فكيف تُوجَّه آيات المكذّبين إلى مؤمنٍ مصلٍّ مستغفر صائم، وتساق في هذا المساق؟!

إن هذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وسياق آيات الله في غير ما أنزلت فيه، وسوء ظن بالله عَزَّوَجَلَّ. وقد قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي**»(٢).

---

(١) «مسند الدارمي» (٢٧٦٩)، و«سنن ابن ماجه» (٤٢٥١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٧٥).

التشكيك في القَبول

تصوير قبول الأعمال الصالحة وكأنه مغامرة مجهولة، وكأن المعاملة مع الله ضربة حظ، فيمكن أن تعمل عملاً صالحاً وتجتهد وتُخلِص فيه ثم لا يقبل، وهذا نوع من تيئيس الناس في تعاملهم مع الله، وسوء ظن بالله عَزَّوَجَلَّ في معاملة عباده، وهو الذي يقول: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فكيف أُعرض عن هذا كله وأقول: لا تدري هل قبل عملك أم لا؟ إن الأصل في كل عمل يؤديه المسلم بإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ ومتابعة لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه مقبول، ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه: «**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا،**

تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقِرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»[١].

ولكننا نسأل الله القبول خوفاً من التقصير في أداء العمل، كما كان إبراهيم وإسماعيل يبنيان البيت ويدعوان ربهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فالإنسان يقدم طاعته إلى الله ويقول: «ربِّ تقبلها» تواضعاً لله، وشعوراً بنقصها والتقصير في أدائها، وبعداً عن الإدلال بالعبادة والإعجاب بها، وأما الله عَزَّوَجَلَّ فهو الشكور، الذي يشكر على القليل، ويثيب عليه بالجزيل.

وربما استشهد بعضهم بحديث عائشة عند الترمذي أنها سألت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت: «أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟»، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: «**لَا يَا ابنة الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]»[٢]. وهذا الحديث وإن حسّنه بعض العلماء إلّا أنه مرسَل كما بيّنه الدارقطني في علله[٣]، والآية واضحة المعنى لا تخفى على عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، فهؤلاء يؤتُون ما آتوا وهم خائفون من لقاء الله، وهذا الخوف هو الذي دفعهم للعطاء والبذل،

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٨٧).
(٢) «جامع الترمذي» (٣١٧٥).
(٣) «علل الدارقطني» (٢٢١٦).

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٩، ١٠]، فالإيمان بلقاء الله والخوف مِن هول الموقف هو الذي يدفع المؤمنين للبذل والإحسان، كما أن التكذيب بيوم الدين هو الذي يدفع إلى الشُّحّ ومنع المعروف، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣]، والمسلم يؤدي العبادة، ويسأل الله القبول من باب استقلالها واتهامها بالخطأ والقصور.

وربما استقبل هؤلاء الوُعاظِ عبادَ الله الصالحين الذين انتهوا من عبادة فيها مشقة وعناء، وصبر ومصابرة، كمن قدم من أداء الحج، ثم يقال له: لا تدري هل قُبل حجك أم لا؟ هل تدري عندما قلت: «لبيك اللهم لبيك» هل قيل لك: «لبيك وسعديك» أم قيل لك: «لا لبيك ولا سعديك» وتُذكر بعض القصص الموجودة في كتب الوعظ، مثل القصة التي تنسب إلى جعفر الصادق أنه لما أحرم وقال: «لبيك اللهم لبّيك» أغمي عليه، فلما أفاق قيل له: ما لك؟. قال: «أخشى أني أقول لبيك اللهم لبيك فيقال: لا لبيك ولا سعديك»[1].

(١) يُنظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٢/ ٧٠).

يا الله! إن الرسول ﷺ حج معه أكثر من مئة ألف وما أغمي على واحد منهم، ولا ظن أحدٌ منهم بربه ظنَّ السوء هذا، ولذلك نجزم يقيناً أن هذه القصة لا تصح عنه، والذي يصح عن أهل العلم ما ورد عن عبد الله بن المبارك أنه قال: «جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه، وعيناه تهملان، فبكيت، فالتفت إلي فقال: ما شأنك؟ فقلت: مَن أسوأ هذا الجمع حالا؟ قال: الذي يظن أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يغفر لهم»[1].

---

(١) «حسن الظن بالله» لابن أبي الدنيا (٩٢)، و«لطائف المعارف» لابن رجب الحنبلي (٢٨٧).

الوعظ بالغرائب

ومن الإغراب على الناس وإبعادهم عن جادّة التأسي ذكرُ غرائب الأخبار في العبادة، والتشديدُ على النفس بما لا يُطاق دوامُه، مثل أن يُقال: إن أحدهم كان يختم القرآن بين المغرب والعشاء، مع أن النبي ﷺ قال: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»[1]، وأن آخر بقي أربعين سنة يصلّي الفجر بوضوء العشاء، أي إنه يحيي الليل كله بالصلاة، مع أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «ما قام رسول الله ﷺ ليلةً حتى الصباح»[2]، وأن آخر كان يصلّي في اليوم ثلاث مئة ركعة، وأما رسول الله ﷺ فما زاد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة[3]. وهذه الأخبار كثير منها لا يصح، وما صحّ منها فهو النادر وليس الغالب، ومن الخطأ أن نطالب عوامَّ زماننا بحال خواصِّ السلف، فكم عدد هؤلاء الخواص في تاريخ الأمة؟ إنّا لو أحصيناهم فلن تزيد تراجمهم عن الألف،

(١) «سنن ابن ماجه» (١٣٤٧)، و«سنن أبي داود» (١٣٩٠).
(٢) «صحيح مسلم» (٧٤٦).
(٣) «صحيح البخاري» (١١٤٧).

فهَبْهُم عشرة آلاف، فهل نحمل الملايين في أجيال الأمة المتعاقبة، بل المليارين المسلمين اليوم من عوامّ زماننا على أحوالِ خواصّ السلف؟!(١).

إن الذي ينبغي أن يُعرض على الناس هو ما يطيقون الاستمرار عليه من غير رهق، فقد كان ﷺ يقول: «**أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى الله أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»(٢)، وحذّر ﷺ من الشدّة المنبتّة والحَزم المنقطع فقال: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»(٣)، وقال: «**اكْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ**»(٤)، وحثّ على التيسير والرفق والمداومة فقال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا**»(٥). وعندما نقدّم النموذج النبوي في العبادة والحياة نجد التوازن الرائع واليسر والسكينة.

وعندما كتبتُ كتاب «اليوم النبوي: برنامج اليوم الكامل في حياة النبي ﷺ» أهديته لأخي الدكتور عبد الله الصبيح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم لقيته بعدها فإذا به يحدثنا عن الكتاب بتعجب واستغراب،

---

(١) من محاضرة لشيخنا د. عبد الكريم بكار.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨١٨).

(٣) «مسند أحمد» (١٣٠٥٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٤٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٨١٨).

(٥) «صحيح البخاري» (٦٤٦٣).

وقال لي: لقد بدأت قراءة الكتاب وأنا قد شددت الأحزمة متحفّزاً لمعرفة حال النبي ﷺ اليومية المزدحمة وبرنامجه الصارم وعمله المرهق، فسرتُ مع النبي ﷺ في يومه رخاءً لا تواجهني شدّة ولا رهق، وأنهيت الكتاب وأنا في عجب: أَهكذا كان يعيش النبي ﷺ بهذه الحياة السمحة الرخية؟! جلوس مع الأصحاب، وأنس مع الزوجات، وضحك مع الأطفال، وزيارة لصاحب، وعيادة لمريض، واستقبال لقادم، ها هو يسير في الطريق، ها هو يدخل السوق، وهذه امرأة تستوقفه فيقف لها، وهذا أعرابي يسأله فيعطيه، في تفاعل مع الحياة والأحياء بلا خشونة ولا رهق ولا توتر، ولكنه تدفّق حيوي كنسيم الريح الرخي، لقد كان الكتاب، مفاجأة لي يا أبا محمد، فقلت له: إن الله يقول عن القرآن: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، فقد يسّر الله القرآن على عظمته للتذكّر والادّكار، فهل تظن أن يجعل الله سيرة نبيه الذي جعله أسوة وقدوة لكل مؤمن نمطاً صعباً وبرنامج حياته عسيراً مُرهقاً؟ كلا، فقد كانت حياته ﷺ نموذجاً للحياة المتوازنة المعتدلة القابلة للتأسي والاستمرار.

وأما هذه الأحوال، فما صحّ منها فهو الحال النادرة والنمط الاستثنائي للخاصة القليلة الذين يناسبهم ولا يناسب غيرهم، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

تعجيل الثواب والعقاب

وذلك بتصوير الجزاء على الأعمال الصالحة على أنه جزاء دنيوي معجل، وذكر قصص وأخبار تبين كيف عُجِّلَ الثواب لأصحاب بعض الطاعات، فهذا شخص تصدق ثم ربح في صفقة تجارية، وهذا شخص أَعطى فأتت إليه منحة، وهذا شخص فعل هذه الطاعة فقبل في وظيفة عالية ما كان يحلم بها، ونحو ذلك من تصوير الثواب على أنه أعطيات دنيوية، إنه يزرع وهم الجزاء الفوري والنتائج السريعة؛ وهذا الإصرار على المباشرة والنتائج المادية هو تغرير دعوي يعِد الناس بأن الصدقة تغير الرزق فوراً، وأن التوبة تنقل المرء من حال إلى حال في ساعات، وأن الأقدار تُدار على نحوِ سحريّ ما إن يلين القلب تحت موعظة حارّة.

وتكون النتيجة أن الإنسان إذا فعل هذه الطاعات انتظر جزاءها العاجل من زهرة الدنيا وزينتها، فإنْ لم يجد هذه المثوبة التي وُعِد بها تشكك في جدوى صالحاتِ الأعمال.

ويقابل ذلك ذكر عقوبات معجَّلة للمذنبين فهذه قصة رجل ضربه ابنه لأنه كان يضرب أباه، وهذا إنسان خسر في تجارته لأنّه لم يدفع زكاتها، وهذه مُطربة أصيبت بسرطان في الحَنجَرة فماتت، وكأنّ الصالحين لا يمرضون ولا يموتون.

مع أننا نرى جبابرة طغاةً فعلوا الأفاعيل وعاشوا حياتهم مستمتعين، وماتوا بكامل الرفاهية، ولم تعجل لهم العقوبة، لأن هذه الدنيا متاع، ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: ٧٧]، وهي مهما طال استمتاعهم بها فهو قليل وقصير، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن بعض أهل النار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣]، وأخبر النبي ﷺ عن بعض أهل الجنة أنه كان من أبأس الناس عيشاً في الدنيا، فقال ﷺ: «**يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» إذن هذا من أهل الجنة، ومع ذلك كان في بؤس في الدنيا، وما كان يأخذ جزاءه معجلاً فيها، وإنما ادُّخِر له الأجر في الآخرة، «**فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيُقَالُ لَهُ: أَيْ فُلَانُ هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أَوْ بَلَاءٌ؟، فَيَقُولُ: مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلَا بَلَاءٌ**» ثم قال ﷺ: «**وَيُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». إذن هذا من أهل النار، ولكنه كان في الدنيا منعَّماً، لكن كم الدنيا بالنسبة للآخرة؟! هي ومضة أو لحظة أو أقل من ذلك، «**فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُخْرَجُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَيْ فُلَانُ هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ**»(١).

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٠٧)، و«سنن ابن ماجه» (٤٣٢١).

وعندما توعد الله تعالى الظالمين والمجرمين توعَّدهم بالجزاء في يوم تشخص فيه الأبصار: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [ابراهيم: ٤٢، ٤٣]، فالمعاملة مع الله هي معاملة مع عالم الغيب وليس مع عالم الشهادة، وميزة المؤمن يقينه بصدق وعد الله في الآخرة، وهي ما يعمل له ويسعى من أجله، ولو أنَّ كل مَن عمل صالحاً أثيبَ عليه في الدينا وكلَّ مَن عمل سيئا عوقب عليه في الدنيا لكان الناس كلهم مؤمنين صالحين، وما صار إيمان المؤمنين إيماناً بالغيب، ولكنْ بهذا الجزاء المُعجَّل.

وقد يعجل الله البشائر في الدنيا لبعض عباده المؤمنين، فضلاً منه وإحساناً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ويعجّل بعض العقوبات لبعض المذنبين تذكيرا وإنذاراً، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولكن هذا ليس هو الجزاء الأوفى الموعود، وليس الذي يعمل له المؤمنون الموقنون، فالدنيا دار عمل، ولكن الجزاء الأوفى والمستوفى هناك في الآخرة، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

تضييق باب التوبة

تضييق باب التوبة وتضخيم آثار الذنوب، مع أن الخطأ من طبيعة البشر، وكل بني آدم خطّاء، قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(١).

والمطلوب ترغيب الخاطئ في التوبة وإطماعه بعفو الله ومغفرته، وأن الندم توبة، ولِذا كان ﷺ يستقبل الخاطئين النادمين بالبُشرى، جاءه عمرو بن العاص مسلِماً، فلما بسط له النبي ﷺ يدَه قبض عمرٌو يَده، فقَالَ ﷺ: «**مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟**». فقال: «أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ». قَالَ ﷺ: «**تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟**» قال عمرٌو: «أَنْ يُغْفَرَ لِي»، قَالَ ﷺ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**»(٢).

وجاءه رجل فقال: «يا رسول الله، إني أصبت حدا، فأقمه علي»، فسكت عنه رسول الله ﷺ، ثم أعاد فقال: «يا رسول الله إني أصبت حدا، فأقمه علي»، فسكت عنه، وأقيمت الصلاة،

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٤٩).

(٢) «مسند أحمد» (١٧٨٢٧).

فلما انصرف نبي الله ﷺ اتبع الرجل رسول الله ﷺ حين انصرف، فقال: «يا رســول الله إني أصبت حَدّاً، فأقمه علي»، فقال له رسول الله ﷺ: «**أَرَأَيْــتَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ، أَلَيْسَ قَدْ تَوَضَّأْتَ فَأَحْسَــنْتَ الْوُضُوءَ؟**» قال: «بلى، يا رســول الله»، قال: «**ثُمَّ شَهِدْتَ الصَّلَاةَ مَعَنَا**». فقال: «نعم، يا رسول الله»، قال ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ: ذَنْبَكَ**»[(١)].

ففتْحُ باب الرجاء للتائبين والنادمين هو هداية القرآن، وهَدْي النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال ﷺ: «**قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»[(٢)].

ومثل هذا الإرجاف بالخاطئين النادمين يدفعهم إلى القنوط واليأس، وهو أعظم ما يفرح به الشيطان منهم، ويسوِّله لهم، أنهم إن استغفروا فلن يغفر لهم، وإن تابوا فلن يتوب الله عليهم، فيرتكسوا في الخطايا، ويرون أن التوبة لا تصح إلا بشرط العصمة بعدها، وقد سأل سائل عالماً أنه وقع في ذنب، وقارف خطيئة، فقال له: تُب وسيتوب الله عليك. قال: فإن عدتُ إلى الذنب؟. فقال: إن عدتَ إلى الذنب فعُد إلى التوبة ما لمْ تطلعِ الشمسُ من مغربها.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٦٥).

(٢) «مسند أحمد» (٢١٤٧٢)، و«سنن الترمذي» (٣٥٤٠).

وإنما تُساق آيات الوعيد والتخويف إلى الخاطئين المستهترين، والمذنبين المصرّين، والمتجرئين على الذنوب استهانة بها، وبذلك يحصل التوازن بين الترغيب والترهيب، والخوف والرجاء، وكل إنسان بحاجة لهما، ولكن يُساق كلٌّ منهما في مساقه، ويوضع في موضعه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

تهويل سوء الخاتمة

الإرجاف بسوء الخاتمة، وكأن سوء الخاتمة كمين ينتظر الإنسان في آخر حياته مهما كان اجتهاده في عمل الصالحات، حتى إذا قاربت وفاته مُكِر به، وتخلّى الله عنه، وتولاه الشيطان فأغواه، ومات على أسوأ حال، وتُذكر عبارات موحشة أو تفسير لبعض الأحاديث تفسيرا خاطئاً، مثل حديث: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا**»[1] وهذا الحديث توضحه رواية أخرى، وهي: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**»[2]، فهذا الذي ينتكس في النهاية لم ينتكس إلا لأنه مستصحبٌ دخيلةً سيئةً في نفسه، وأما من كان صادقا مخلصا مع الله فإن الله يحوطه ويرعاه، ولا يتخلى عنه،

(١) «صحيح البخاري» (٧٤٥٤)، و«صحيح مسلم» (٢٦٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٩٨)، و«صحيح مسلم» (١١٢).

وقد قال ﷺ: «**احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»(١). وأشد شدة تمر بالإنسان هي الموت، فلا يمكن أن يحفظك الله في حياتك وأنت على طاعته والتقرب منه ثم يتخلى عنك في أشد شدة وهي الموت فيختم لك بالسيئات؟! هذا من سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

وهناك مع الأسف مَن يصور ذلك على أن هذا مكر الله الذي نُحَذَّر من الأمن منه، فيقول لك: لا تدري فيمكن أن يُختم لك عند الموت بخاتمة سيئة؟! ثم يقرأ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وهذا سوء فهم لمعنى المكر الإلهي، فقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فالله إنما يمكر بأصحاب المكر من المنافقين الذين يظنون أنهم يخادعون الله إذا خدعوا الذين آمنوا، فيمكرون ويَمكر اللهُ بهم، ويستهزئون ويَستهزِئ اللهُ بهم، ويُخادِعون اللهَ وهو خادِعهم، فهذه الصفات تذكر على سبيل المقابلة، فمقابلة المكر من المجرمين مكر الله بهم، فيمدهم في الغي ثم يوافونه يوم القيامة وقد رَصَد لهم عذابه وانتقامه، أما من كان يحسن المعاملة مع الله عَزَّوَجَلَّ فلا يظن بربه إلا خيرا، ولن يتخلى الله عنه ولن يخذله ولن يسلمه لعدوه الشيطان في أحرج لحظات العمر، وآخر أنفاس الحياة.

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٥١٦).

حاجتنا إلى الموعظة الحسنة

الوعظ رسالة القرآن إلى البشرية، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وهو وظيفة الأنبياء في أقوامهم كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، والوعظ الحسن إحياءٌ للقلوب، وتزكية للنفوس، وتجديد لأثر الإيمان فيها، ولذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتعاهد أصحابه بالموعظة، قال ابن مسعود: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»[(١)]، وإذا وَعَظَهم وقعت مواعظه من نفوسهم موقعها، فتوجل القلوب، وتذرف العيون، وتستحضر مشاهد الغيب وكأنها شهادة، قال العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وعظنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون»[(٢)].

(١) «صحيح البخاري» (٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢١).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٤٢)، و«سنن أبي داود» (٤٦٠٧)، و«جامع الترمذي» (٢٦٧٦).

وتتابع الصحابة والتابعون على مجالس الوعظ لتذكير الناس وتزكيتهم، فكان أبو الدرداء يُذكِّر الناس يوم الجمعة قبل الخطبة، وأبو هريرة كذلك، وكان ابن مسعود يعظ في الكوفة كل يوم خميس، واشتهرت مواعظ الحسن البصري وعُبيد بن عمير من التابعين، واشتهرت مواعظ الحارث المحاسِبيّ وابن الجوزي وغيرهم.

وحاجة القلوب إلى الوعظ كحاجة الأبدان إلى الغَسْل، فلابد أن تُتَعاهَد القلوبُ بالمواعظ لإيقاظها من غفلاتها، كما تُتَعاهَد الأبدان لتنظيفها من أدرانها، ولكن الوعظ ككل عمل عام تقع الأخطاء في أدائه، ويتسلل الدُّخَلاء إليه، ولِذا وجد التحذير من هذه النوعية الدخيلة المشوِّهة للوعظ، والمتكسِّبة به، وأُلِّفَت كتب في التحذير من انحرافاتهم، وأقبحُها نشر الأحاديث الموضوعة والقصص المكذوبة، وكانوا يسمونهم القصاص، ومن ذلك كتاب ابن الجوزي «كتاب القُصّاص والمُذكِّرين»، وكتاب العراقي «الباعث على الخلاص من حوادث القُصّاص»، وكتاب السيوطي «تحذير الخواص من أحاديث القصاص»، ووجود هؤلاء الدخلاء على هذه المهمة الشريفة متتابع في العصور، ثمّ تفشّى في هذا العصر مع انتشار وسائل التواصل والتي روّجتْ لأنواع من المواعظ المشحونة بالغرائب والمناكير، وتتابعت وتكاثرت حتّى حجبت المواعظ الصحيحة البليغة، ولذا وقفنا هنا مع بعض الانحرافات في طرائق الوعظ، وأهم المزالق التي يتعرض لها الوعاظ.

خُلاصات

١ ـ من الآفات التي تقدح في إخلاص الداعية: منته على ربه، وعلى الدعاة من حوله، فديدن بعضهم بلسان الحال أو بلسان المقال: أنا قلت، وأنا فعلت. وهجّيراه أتذكرون يوم فعلت كذا وكذا... ولا يزال يعيد ثم يعيد حتى يتعاظم في نفسه، ويُعجب بعمله.

٢ ـ على الداعية ألا ينتظر مجيء الناس إليه، بل يقتحم مجامعهم وأسواقهم ونواديهم، وإن كان فيها بعض المنكرات.

٣ ـ الموعظة الحسنة هي التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق في المشاعر بلطف، وتبتعد عن الزجر والتأنيب في غير موجب، ولا تفضح الأخطاء ولا تشهّر بها، ولا تشمت بمن قارفها.

٤ ـ الجدال بالتي هي أحسن هو الذي يدار بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له ولا تقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أن هدفه ليس الغلبة وتحقيق الانتصار، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق.

٥ ـ إن رسول الله ﷺ كان يراعي في تعليمه ودعوته بيئة المُتعلِّم وخلفيته التكوينية، وبذلك يصل من أقرب الطرق إلى عقله وقلبه.

٦ ـ ليست العبرة بنقص البدايات، ولكنْ بكمال النهايات. وعلينا أن لا نقع في أسر عقدة الإتقان وانتظار الكمال، فهذه من أعظم العوائق في العمل، وقد قيل: الأحسن عدو الحسن.

٧ ـ علينا أن لا نستغرق في التجارب التاريخية المبهرة، فقد وُصفت لنا حال اكتمالها، ولو اطلعنا عليها حال بداياتها اليسيرة لوجدناها تشبه بداياتنا.

٨ ـ علينا أن لا نزهد في شيء يسير نستطيعه من أجل شيء كبير نتمنّاه.

٩ ـ إنّ الدعوة ربح وغنيمة كلها، وأعظم غنائمها أن يهدي الله بك رجلاً واحداً، حتى وإن كنت تظنّ أنه لن يفيد غيره، فإنقاذه بحد ذاته نجاة له ومكسب لك، وهو إنجاز يحقّ لك أن تفرح به، وتحمد الله على فضله عليك.

١٠ ـ حينما نعرّف بالإسلام فإن علينا أن نعرضه بيقين وثقة، وأن لا ندعو الناس وكأننا نتسول للإسلام أتباعاً.

١١ ـ لا تستهِن بجُهدك، ولا تستصغر دورك، فقد تكون داعيةً في بلدٍ فيُنقذ الله بك أمّة هالكةً، ويُحيي بك أرضاً مَواتاً. وربما أسلم على يدك من سيعمل أكثر مما عملت، وينجز أفضل مما أنجزت، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع.

١٢ ـ من المهم توثيق الصلة بالجهات الرسمية في بلد الدعوة، سواءٌ منها الأمنية أو الاجتماعية أو الدينية، والتواصل معهم عن طريق اللقاءات ودعوتهم لحضور المناسبات الدينية والاجتماعية، وتوضيح الصورة لهم، وألّا يكون هناك عمل يخالف القوانين والأنظمة.

١٣ ـ علينا مواجهة حملات التشويه بطريقة إيجابية تستغل الحدث وتُفعِّله ولا تنفعل به، فإذا جاءت حملة سخرية بالنبي ﷺ، تواجَه بحملة أقوى للتعريف بالنبي ﷺ وبيان عظمته، وإذا وُجدت حملة استخفاف بالقرآن تواجَه بترجمة سور وآيات من القرآن تبين عظمته، ورعايته للحقوق، وتعظيمه للأنبياء، وتعزيزه للقيم الأخلاقيّة.

١٤ ـ يجب إغلاق الباب عن الخلافات الموجودة بين المسلمين في بلادهم فلا ترحل معهم حيث هاجروا.

١٥ ـ ستكون الجناية مضاعفة حينما تصدر الخلافات الواقعة بين المسلمين بين جماعاتهم وأحزابهم وطوائفهم إلى المسلمين في الخارج، ويشغل بها أناس حديثو عهد بالإسلام.

١٦ ـ إن غير المسلمين أنواع، ولكلِّ نوع ما يناسبه في دعوته، فلا يصح أن أدعو الملحد كما أدعو النصراني المؤمن بنصرانيته.

١٧ ـ إن علينا عند تلقي المسلم الجديد أن لا ندخله في تفريعات تُثيرُ عنده حَيرة، أو تُحدِث له نفرة، وإنما نركز معه على الأصول الإيمانية والقيم الأخلاقية.

١٨ ـ علينا أن نطمئن المسلم الجديد على أنّه بقبول الإسلام لن يفقد علاقاته، ولنْ يدخل في مواجهة مع مجتمعه، ولنْ تنقلب حياته رأساً على عقِب، بلْ إنّ هناك واجبات اجتماعية وعلاقات ينبغي أن يُحافظ عليها ويعتني بها ويلتزم الخلق الحسن فيها.

١٩ ـ إن من المهم تقويةَ العلاقة بالمسلم الجديد واستمرارها، وربطه بجماعة المسلمين في بلده، وبخاصّة أبناء المسلمين الجدد، بالتّعرّف عليهم، والتواصل معهم وتأهيلهم ودعم الموهوبين منهم.

٢٠ ـ إن التأخر في تطبيق بعض الأمور مراعاة لظروف الناس وعاداتهم ومصالحهم الدنيوية مطلوب إلى أن يستقر الإيمان في قلوبهم وتتكامل معرفتهم بالإسلام.

٢١ ـ قد يكون من أسباب الهداية كلمة تظنها عابرة، أو تصرف تظنه عفويّاً، ولكنه ينمو حتى يثمر بعيداً عن مراقبتك.

٢٢ ـ من مفاتيح الحوار:

أن الذي أرسل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليتمم رسالة موسى هو الذي أرسل محمَّداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليتمّم رسالة الأنبياء قبله.

والذي أنزل الإنجيل على عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي أنزل القرآن على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وكلّ دليل على صدق عيسى يوجد أكثر منه على صدق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وكلّ دليل على صحة الإنجيل يوجد أوثق منه على صحة القرآن.

٢٣ ـ أعلى مقامات البشر مقامات الأنبياء، وورثتهم هم العلماء والدعاة الذين يبلغون رسالات الله وينشرون الخير ويقيمون الدين، ويستنقذون الخلق فيدلونهم على الخالق.

٢٤ ـ مقام الإفتاء للفقيه المفتي وليس لكل أحد.

ومقام المناظرة للمتأهل العارف بأساليب الجدل وإدارة الحوار.

ومقام الدعوة هو المساحة الأوسع، ويستطيعه كل أحدٍ بما معه من العلم فقد قال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(١). وقال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»(٢).

٢٥ ـ من مقاصد نزول القرآن أن يقوم المسلمون بتبليغه لغيرهم، وينذروهم به: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

٢٦ ـ تَعْجَبُ عندما ترى أناساً يتبعون ديانات خرافية يَسخر منها غيرهم، وترى قناعتهم بها وإخلاصهم لها، وتتساءل كيف لو عرف هؤلاء رسالة الإسلام بوضوحها، ونقائها، وغلبة برهانها! إن معرفتهم برسالة الإسلام هي مسؤوليتنا نحن.

٢٧ ـ كل مَن أسلم على يدك فإن عمره يُضاف إلى عمرك، وعمله الصالح يُضاف إلى عملك.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٦١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٤١).

٢٨ ـ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقدَّم الحجة المقنعة في وعاء عاطفي جميل، يشعر المدعو بخصوصيته عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبقربه منه، وبأن ما يأمر به هو النصح والشفقة والمحبة.

٢٩ ـ ركّز على خطاب المشاعر مع خطاب العقل، وأشعِرِ الْمدعو بحرصك عليه وحبّك الخير له، مثل: «إني أريد كما اصطحبنا في طريق الحياة في الدنيا فإني أحب أن نصطحب في نعيم الملكوت معاً في الآخرة».

٣٠ ـ لعل قلة من سكان العالم هم الذين اتخذوا موقفاً دينياً من الإسلام، ورفضاً مبدئياً له، ولكن الأغلب ليس لديهم موقف محدد، وليس لهم اهتمام بالأديان، وهم في حال غفلة وذهول، وبحاجة إلى من يَلفت انتباههم ويخاطب فطرتهم.

٣١ ـ قد ينشغل بعض الدعاة بالجدل مع قوم مجادلين خَصِمين لا يريدون الحق ولا يطلبونه، ولكن يستمتعون بالجدل كمتعة لاعب الشطرنج، وهم من نوع المُعرضين الذين ينطبق عليهم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٥-٧]، ومن الخطأ أن ننشغل بهم ومعهم، ونغفل عن أناس لم يبلغهم الإسلام ولم يعرفوا منه شيئاً، ولو عرفوه لآمنوا به واتبعوه، وأما هؤلاء الخَصِمون المجادلون فنكتفي معهم بتوضيح الحقائق وعرض الرسالة من غير تمادٍ في الجدل.

٣٢ ـ يقول ﷺ: «**كَمْ مِنْ جَارٍ مُتَعَلِّقٌ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذَا أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي، فَمَنَعَ مَعْرُوفَهُ**»[١]. فإذا كان الجار سيناشد ربّه في جاره لِـمَ منعه فضل طعامه، فكيف ستكون مسؤوليته إذا منعه سبب نجاته من الهدى الذي معه ولا ينقصه بذله؟!.

٣٣ ـ من أهم صفات الداعية الرحمة بالخلق، قال تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال عن الخضر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥]، ولن يتبعك ولن يستجيب لك مَنْ لم يعتقد أنك تشفق عليه وتحبّ الخير له.

٣٤ ـ هناك مَنْ يدعو وكأنّه داخل إلى معركة، يريد أن يحقق انتصاراً ويخرج غالباً، وكأن همّه الأكبر أن يُفحم من أمامه وليس أن ينقذه، وهذا شَرَكٌ شيطاني يفسد به دعوة الداعي متى خالطتها هذه الشهوة المحرّمة، من الاستعلاء والغرور وحب المغالبة، قال الإمام الشافعي: «ما ناظرت أحداً على الغلبة إلا على الحق عندي»[٢].

٣٥ ـ كنت في أمريكا أحاول دعوة رجل من الهنود الحمر اسمه روبرت، وقد ناقشته وأجبت على كل الشبه عنده وأعطيته كتيبات ولكن الرجل لم يسلم.

---

(١) «الأدب المفرد» للبخاري (١١١).
(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (١/ ١٧٣).

ثم فوجئت به يصلّي معنا، فسألته عن السبب فأشار إلى رجل عامي معنا في المسجد فقال: «هذا»، فذهبت إلى هذا الرجل وسألته: «كم استغرقت من الوقت في إقناعه؟» قال: «عشر دقائق». فلمّا رأى عجبي وأخبرته بمحاولاتي قال لي: «أنت تدعوه بعقلك وأنا أدعوه بقلبي، كلّمته بكلام عقلي وعلمي ولكن غفلت عن الجانب الروحي». فقلت: ما الذي قلت له؟. قال: «قلت له: يا روبرت، أخاف أنك تموت فلا أراك في الجنّة، أريدك أن تكون بعد هذه الحياة معنا في الجنّة ولا تكون من أهل النار»، فتأثّر الرجل وأسلم(١).

٣٦ ـ عاتب الله نبيه على شدّة أسفه على مَنْ دعاهم فلم يؤمنوا فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، أي أنك توشك أن تهلك نفسك لشدة أسفك عليهم، فكيف بأسفنا نحن على مَنْ يموتون على غير الإسلام، لأن أحداً لم يبيّنه لهم ولم يدعُهم إليه؟!

٣٧ ـ دعا النبي ﷺ عمّه أبا طالب وهو على فراش الموت فكان يدعوه إلى آخر لحظات حياته: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَا اللهُ**»، فلم تدركه الهداية، ودعا الغلامَ اليهودي وهو على فراش الموت فقال: «**أَسْلِمْ**»، فتشهّد شهادة الحق ثم مات، لقد كان النبي ﷺ يتابع الناس لاستنقاذهم إلى آخر لحظات العمر.

(١) من محاضرة أخي الشيخ حيان اليافعي.

٣٨ ـ قال نوح عن قومه: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨، ٩]. هناك من يستجيب في الدعوة الجماعية وهناك من تناسبه الدعوة الخاصّة وقد فعل نوح كل ذلك، ولذا فلا بد من اختيار ما يناسب كل شخص وكل جماعة، وتنويع الأساليب والطرائق، فلكل ما يناسبه ويؤثر فيه.

٣٩ ـ من أعظم مفاتيح الحوار الحديث عن الخالق وعظمته، وأن هذا الكون العظيم بسعته ونظامه هو خلقه بحكمته وتدبيره، وأن الله خلق هذا الإنسان وميّزه عن كل مخلوقات الكون بالعقل والإرادة، وأنه لا يمكن أن يكون قد أوجد هذا الملكوت عبثاً؛ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، وأنه لا يمكن أن يترك الإنسان في هذا الكون بدون هداية ولا مسؤولية؛ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، ولذا أرسل له الرسل ليبينوا له مهمته في الحياة، وطريقه الصحيح الذي يسلكه.

وأن مصيرنا إلى الله ونهايتنا إليه؛ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فهل استعددنا لهذا المصير؟ وهل بذلنا من البحث ما يناسب خطورة القضية وأبديّة المصير؟.

فإذا ابتدأت الكلام عن عظمة الله سبحانه وجلاله وإنعامه ورحمته ووحدانيته تبخّرت كثير من الشبهات والأسئلة التفصيلية.

٤٠ ـ إذا لم تكن تحسن لغة التخاطب أو لم تكن تحسن الحوار فلا أقل من اختيار النشرات الموجزة التي تُعرّفه بالإسلام وتُعرِّفه بالنبي ﷺ وتُعرِّفه بالقرآن، والتي يمكن أن يقرأها الإنسان في جلسة، لعلها تكون الشرارة التي تقدح نوراً في قلبه.

٤١ ـ إذا دعوت وفتح الله عليك ونجحت في دعوتك فلا تنسب النجاح إلى نفسك فهو محض توفيق الله لك وفضله عليك وتذكّر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]، فإذا جاء النصر فهو نصر الله، وإذا جاء الفتح فهو من الله، ولِذا دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وهو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١]، وكأنما يقول: يا ربّ ما أنا فتحت ولكنْ أنت فتحت، وما أنا انتصرت ولكنْ أنت نصرت، ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

٤٢ ـ وإذا دعوت فلا تتحمّل كل المسؤولية، فلا تكن فقيهاً وأحِل إلى المفتين، وصِلِ المدعوَّ بالمراكز في بلده وإلى مواقع الدعوة بلغته، وأَحِلْ إلى الجمعيات التي تتولّى رعاية المسلم الجديد ومتابعته، وبذلك تتكامل الجهود وتتآزر وتثمر.

٤٣ ـ لم يرضَ الله لأصحاب النبي ﷺ أن يكون ارتباطهم بشخص النبي ﷺ ولكن ربطهم بدعوته ودينه فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولِذا فإذا دعَونا أحداً فإننا نربطه بثوابت الإسلام وسيرة سيد الخلق وسنّته ﷺ، فهو أخ لنا وليس تابعاً لنا، ونحن مسلمون مثله لا نحتكر الإسلام ولا نتملّكه.

٤٤ ـ ومَن ندعوهم ليسوا أتباعاً لنا، ولكنْ نحن وإيّاهم أتباع نبينا محمد ﷺ، فلا يشعر المدعو بتبعيته لِـمَن دعاه.

٤٥ ـ مخالطة الناس تستوجب الصبر على أذاهـم، ودعوتهم تستوجب صبراً مضاعفاً، ولِذا ذكر اللهُ الصبر مقروناً بالتواصي بالحق فقال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

ومَـنْ تصـدى للدعـوة والإنـذار فهـو مخاطـب بالصبـر لله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]... ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

وقال ﷺ: «**الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُـمْ**»(١). وهذا الأذى قد لا يكون مقصوداً، ولكنه نتيجة اختلاف عادات الناس وطبائعهم وثقافاتهم.

٤٦ ـ لا يصح تبرير عدم الاستجابة لحمل الدعوة بأن النبي ﷺ أخبر أن النبي يأتي وليس معه أحد، فهذا خبر عن أنبياء الأمم السابقة التي استحقت العذاب والإهـلاك، أمّا أُمّةُ محمد ﷺ فهي أمة الاستجابة، ونبينا ﷺ هو أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة، وقد أخبرنا أن أمته نصف أهل الجنة.

فإذا رأى أحد عدم الاستجابة فليراجع طريقته وأداءه، فربما كان الخلل لديه في الأسلوب أو الأداء.

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٤٠٣٢)، و«جامع الترمذي» (٢٥٠٧).

٤٧ ـ يعامل الداعية أعداء دعوته الذين يعايشهم بالاحتواء ما أمكن، والحرص على عدم تصعيد الخلاف.

وقد حلم النبي ﷺ على اليهود مع خبثهم وسوء أدبهم، حيث كانوا يدخلون عليه فيقولون: «السام عليكم» أي الموت والهلاك، فيسمع ويعلم قصدهم، ولكنه لا يزيد على قوله: «**وَعَلَيْكُمْ**»[(١)].

ودارَى عبدَ الله بن أُبيّ بن سلول رأسَ المنافقين حتى مات من غير أن يتصادم معه.

فكل مَن أمكن كسبه يُكسب، أو تحييده يُحَيَّد، أو تخفيف عداوته سلك معه ذلك.

٤٨ ـ سوف تجد في كل شخص ما يستحق الثناء عليه، والثناء مفتاح قبول الدعوة.

وقد سأل النبيُّ ﷺ عن خالد بن الوليد حين دخل مكة في عمرة القضاء، وقال: «**مَا مِثْلُ خَالِدٍ مَنْ جَهِلَ الْإِسْلَامِ، وَلَوْ كَانَ جَعَلَ نِكَايَتَهُ وَجَدَّهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ**»[(٢)].

فتوجه خالد إلى رسول الله ﷺ فرحب به وقال: «**قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتُ أَلَّا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**»[(٣)]. فكان مع رسول الله ﷺ «سيف الله المسلول».

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٥).
(٢) «طبقات ابن سعد» (٧/ ٣٩٤).
(٣) «طبقات ابن سعد» (٤/ ٢٥٢).

وقال عن عبد الله بن عمر: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**». فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[1]. وقال عن أشج عبد القيس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، وَالأَنَاةُ**»[2].

ولذا فمِنَ الـمُهم أن تُثنِي على مَنْ تدعوه، وتُثني على تطلّبه للحق وسؤاله عنه، وحرصه على اكتشاف الحقيقة، ونحو ذلك مما يحفِّزُه للبحث والمراجعة.

٤٩ ـ نحن بحاجة إلى إحياء الوعي الدعوي لدى عامة المسلمين ليعيشوا حالة استنفار دعوي عام يُبلِّغون فيه دعوة الإسلام ورسالته.

ومن المؤسف أن يعيش غير المسلم في بلاد المسلمين سنين عديدة ثم يغادرها، ولم يَعرِض عليه أحدٌ الإسلام ويعرّفه به، أو يعيش المسلم في بلاد غير إسلامية سنين عديدة ثم يعود دون أن يهتدي على يديه أحد أو يعرض الإسلام على أحد.

٥٠ ـ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، تُقال لمن بذل جهده في الدعوة برحمة وحرص واجتهاد، ثم آسفه إعراض بعض مَن يدعوهم، فيُقال له: قد ثبت أجرك وتم البلاغ. فهي تسلية لمن اجتهد وأَسِف، وليست معذرة لمن يدعو كيفما اتفق بلا حكمة ولا بصيرة ثم يقول إذا رأى إعراض الناس: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

(١) «صحيح البخاري» (١١٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٩).
(٢) «صحيح مسلم» (١٨).

٥١ ـ الداعية مُستنقِذ، حريص على نجاة من يدعوه بتلطفه ورحمته ولين قوله، وليس مهمته مجرد البلاغ ليقيم الحجة، كأنما يريد أن يتأكد من دخولهم النار بجدارة.

٥٢ ـ من المهم توطين الدعوة في البلاد، واستنباتها في البلاد غير المسلمة، وتحميل من يُسلم هناك مسؤولية الدعوة في بلده، وهذا ما فعله النبي ﷺ مع أبناء القبائل الذين أسلموا، فأرسلهم دُعاة إلى أقوامهم، وهو ما فعله الصحابة مع أهل البلاد، فكان كثير من جيل العلماء من أبناء الشعوب التي دخلت في الإسلام من غير العرب، فكان من التابعين مجاهد بن جبر، والحسن البصري، وغيرهما، ثم تتابع العلم والدعوة في أجيالهم، كأبي حنيفة والبخاري وغيرهما.

٥٣ ـ ليس هناك مقياس للعلم الذي يؤهل للدعوة، وإنما المهم أن ندعو بالعلم الذي نعلمه، وليس بكل العلم، فعرض الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده وأهمية التعرف على الإسلام يكفي فيه قدر من العلم يوجد عند عامة المسلمين.

٥٤ ـ لا يَعُوقك عن الدعوة قلة معلوماتك وعدم تخصصك الشرعي، فما معك من العلم أكثر مما كان مع أبي ذر الغفاري حين أرسله النبي ﷺ إلى قومه، وما مع الطفيل بن عمرو حين أرسله النبي ﷺ إلى قومه في أول الإسلام.

٥٥ ـ هل تعلم من هم الأذكياء الكسالى؟ هم الذين يبررون كسلهم بذكائهم، فيحملون المجهر المكبِّر، يكتشفون النقص في كل عمل، والخطأ في كل اجتهاد، دون أن يقدموا البديل، أو يجتهدوا في التصحيح، وإنما ليبرروا قعودهم.

ولذا ينبغي أن نكون على حذر من أن تسري إلينا عدوى هؤلاء، فهم المثبِّطون، المسوِّقون للكسل، المبررون بالأعذار.

قال ابن الجوزي: ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة مَنْ لا يصلح، فإن الطبع يسرق، فإن لم يتشبه بهم، ولم يسرق منهم، فتر عن عمله[1]. وذلك أنه سيقارن نفسه بهم، فيأخذه الغرور، ويقنع بما عنده، فتضعف عزيمته عن الاستزادة.

٥٦ ـ طريق الدعوة عامر بالسالكين، والجهود الدعوية بحمد الله متكاثرة، والمؤسسات والمراكز الدعوية منتشرة، ولذا فمن المهم التكامل مع الجهود القائمة، والاستفادة منها، والتناغم معها، وألا ينطلق الداعية في دعوته كأنه الأول والوحيد في الساحة، فتتكرر الجهود وتتضارب، وتُهدر الطاقة، ويتبدد العمل.

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (٤١١)، ويُنظر: «الأربعون الدعوية» للشيخ أحمد الصويان.

ومِنَ المُهِمّ التركيز على المساحات الشاغرة والسبق إلى ما لم يُسبق إليه.

٥٧ ـ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «إني أُبْدِعَ بي ـ أي هلكت راحلتي ـ فاحملني». فقال ﷺ: «**مَا عِنْدِي**». فقال رجل: «يا رسول الله، ألا أدلّه على من يحمله؟» فقال ﷺ: «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**»[١].

إن هذا الرجل لم يفعل شيئاً سوى كلمة خير قالها، فساوى في الأجر المنفِق الذي سيعطي راحلته.

وهكذا كل داعية إلى خير يدل بكلمة، فيحصل ثواب عمل بل أعمال كثيرة متتابعة.

٥٨ ـ الداعية المخلص يتعلق قلبه بالله وحده، فهو لا يدعو لحزب ولا لطائفة ولا لجماعة خاصة، تراه يحب الدعاة المخلصين جميعاً ويدعو لهم ويفرح بإنجازاتهم ويذب عن أعراضهم، عرفهم أو لم يعرفهم.

ويحب انتشار الخير سواء كان على يده أو على يد غيره، ولا يحسد أحداً على عمله، ولا يَعُوق مسيرتَه حتى ولو اختلف معه في بعض الاجتهادات.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٨٩٣).

وثمرة الإخلاص إخراج ما في القلب من الشوائب. قال ﷺ: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ[1] عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»[2].

٥٩ ـ مر رسول الله ﷺ بالسوق داخلا من بعض العالية، والناس كنفته، فمر بجدي أسك[3] ميت فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**». قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه، لأنه أسكّ، فكيف وهو ميت؟ فقال ﷺ: «**فَوَالله، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ!**»[4]. فتأمل كيف استثمر النبي ﷺ مروره العابر على السوق في وعظ الناس الذين يشتغلون بدنياهم، والتربية بالموقف ربما تكون أبلغ دلالة، وأعمق أثراً من الكلمة المباشرة، وكم من المواقف العابرة التي تمر على الداعية فلا يلتفت لها! لكن يحولها القائد الفطن إلى فرصة يصنع منها حدثاً.

(١) يُغِلّ من الإغلال، أي الخيانة، وروي: يَغلّ، من الغل، وهو الحقد، والمعنى: أن هذه الخلال تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والشر. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٣٨١).

(٢) «مسند أحمد» (١٣٣٥٠)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣١)، ويُنظر: «الأربعون الدعوية» للشيخ أحمد الصويان (٦١).

(٣) أسك: أي صغير الأذن.

(٤) «صحيح مسلم» (٢٩٥٧).

وإذا كان استثمار الفرص العابرة التي لم يحسب لها حساب من تمام الفطنة والنباهة، فإن تضييع الفرص الكبيرة المعلومة من أشد العجز والتفريط[(١)].

٦٠ ـ يُروى أن بائعاً كان يبيع العسل، وبجواره بائع يبيع الخل، وكان الناس يزدحمون على بائع الخل، ويبتعدون عن بائع العسل، فعَجِبَ بائع العسل وسأل بائع الخل عن سبب ذلك، فقال له: «أنا أبيع الخل بلسانٍ من عسل، وأنت تبيع العسل بلسانٍ من خل».

وهكذا صاحب الدعوة، هو بائع عسل، ولكن عليه أن يدعو إليها بلسان من عسل، فلديك طعام لذيذ، فقَدِّمه في طبق جميل.

٦١ ـ من المهم للداعية القراءة في كتب الدعوة وفضلها وآدابها، فهي تعطي طاقة تحفيزية وبصيرة دعوية. ومن الأمثلة على ذلك:

أ ـ «الأربعون الدعوية» للشيخ أحمد الصويان.

ب ـ «الدعوة قواعد وأصول» للأستاذ جمعة أمين عبد العزيز.

ج ـ «الخطاب الدعوي» للشيخ سلمان العودة.

د ـ «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله» للشيخ د. محمد أبوالنصر عطار، وغيرها كثير.

(١) يُنظر: «الأربعون الدعوية» للشيخ أحمد الصويان.

ومن المفيد أيضاً قراءة قصص الذين أسلموا، وقد جمع في ذلك عدة كتب، منها «رجال ونساء أسلموا»، ومنها سيرة مالكوم إكس، ومحمد أسد «الطريق إلى مكة»، وغيرها، وسير الدعاة المؤثرين، كسيرة الدكتور عبد الرحمن السميط رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيره.

٦٢ ـ وفي ختام هذا التطواف أقف معك أخي القارئ شاكراً لك هذه الصحبة في هذه الرحلة المباركة مع الدعوة والداعية، وأنا على يقين أنك قد وجدت فجوة أو عثرت على خطأ، أو تذكرت قصة مؤثرة، أو معنى مهمّاً من معاني الدعوة لم يُذكر فيما قرأت، ولذا فإني أرغب إليك أن توافيَني بما ترى استداركه، أو تقترح إضافته، لتكون شريكاً في تتمة العمل، وشريكاً فيما نحتسبه من أجره، ولا يزال العلم رحِماً بين أهله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

فهرس الموضوعات

كتب للمؤلف

اليوم النبوي

قصص نبوية

السيرة اليسيرة

الحياة النبوية

أماكن نبوية

إلى أخي وأختي

الآثار النبوية

سماء الذاكرة

كأنك معه

حديث الغدير

سنام الإسلام

تعرف على القرآن

الحياة بعد الحياة

بداية التاريخ

القبر المقدس

التواصل مع المؤلف

Website

Email

Facebook

Youtube

Telegram

TikTok

WhatsApp
(+90) 5467723779

X

على بصيرة

طرائق للدعوة وتذكرة للدعاة

سعدت بزيارة مراكز إسلامية في بلاد الدعوة ومهاجر الدعاة، ورأيت من اجتهادهم وإنجازهم ما ملأ النفس إعجاباً بهم وغبطةً لهم.

وكنت في كل مرةٍ ألقاهم أشعر أني أتزوّد بمدد روحيّ، وطاقة نفسية عالية، فكثير من هؤلاء الإخوة نموذج للتفاني، والاستغراق في العمل، والتلذذ بالإنجاز.

وكنت في نشوة هذه اللقاءات أتفاعل معهم ببعض الخواطر من وحي اللقاء، وأسمع منهم بعض الإفادات، فرأيت جمعها في هذه النقاط المختصرة، لتكون رسالةَ تَذاكُرٍ وتناصح، تؤكد ما ذكر، وتُذَكر بما لم يذكر، وأنتظر ممن اطلع عليها من إخواني إفادتي بمرئياتهم من إضافة أو استدراك، سائلاً الله أن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، والمتواصين بالحق والصبر.

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

